www.liilas.com/vb3
Aml
روايات احلام

حرب الفراشة

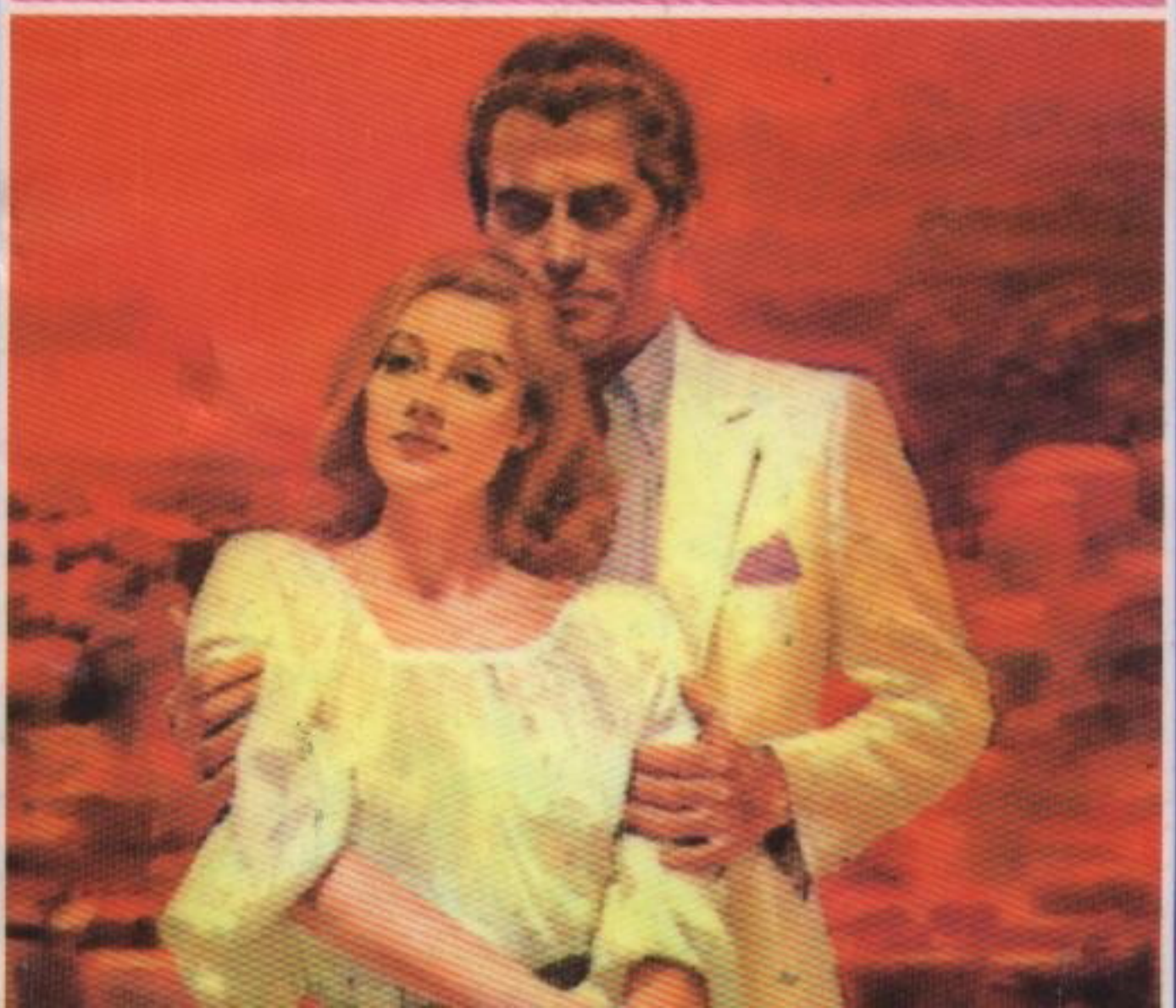

روايات أحلام

حرب الفراشة

من ينظر إلى ميلاني قد يخدعه منظرها فأنوثتها الرقيقة كانت تعطي انطباعاً أنها امرأة هشة ضعيفة، ولكن هذا لم يكن يعكس حقيقة شخصيتها...

أنذرها جوليانوس بيلانوس منذ اللقاء الأول بأن تتوقف عن مهاجمته، ولكن سطوة هذا الرجل لم تردع ميلاني عن الوقوف في وجهه، ولم يمنعها كونها موظفة عنده لمرافقة ابنته، المراهقة الطائشة، من تحديه قائلة: «إذا كانت ابنتك مستهترة، سيد بيلانوس، فلأنك أنت مثالها الأعلى».

حاولت ميلاني أن تلقنه دروساً في التربية ولكن جوليانوس كان يفكر في شيء آخر...

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١٫٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

www.liilas.com/vb3
Aml

١ ـ نظرات قلقة

كانت ميلاني تحس بايزاك يرغي ويزبد إلى جانبها.. محدقاً بإشارة السير التي تحولت إلى الأصفر، مرت سيارة تاكسي قريباً منه، فأجفل.. ايزاك ليس بالسائق الأرعن وهو يشق طريقه عبر زحام السيارات في لندن، بل جفل لخوفه أن يخدش أحد دهان سيارته الجديدة اللماع، ونظر إلى سائق التاكسي، الذي رد إليه نظرته متحدياً إياه بالتفوه بكلمة احتجاج.. تراجع ايزاك وأبعد عينيه لينظر إلى ساعته وقال منزعجاً:

ـ كان يجب أن أغادر في وقت أبكر. أتمنى أن لا نتأخر.

ردت ميلاني بمرح:

ـ لا تقلق...

رغم إدراكها أنه لا جدوى من ذلك فالقلق من ميزات ايزاك الرئيسة.. نظرت إلى السماء الزرقاء وعيناها مغشيتان ببريق شمس الصيف، لكن بشرتها كانت باردة بشكل غريب.. أوه.. لا.. ليس مرة أخرى!

سأل ايزاك بقلق:

ـ هل أنت على ما يرام ميلاني؟

ردت كاذبة: بخير..

فقد سئمت ميلاني شعورها المتكرر بالمرض. وها قد مرت سنوات على مباشرتها العمل الطويل دون أي تذمر، إلا في بعض الأحيان:

ـ سأترك هذا العمل.. لماذا أقتل نفسي للاشيء.

لكنها بقيت تعمل بالرغم من تردّي وضعها الصحي: رأسها يؤلمها،

أطرافها متشنجة، متعبة جداً بحيث لا تفعل شيئاً بعد عودتها من العمل سوى أن ترمي نفسها في الفراش خائرة القوى.

وها قد بدأ كل شيء يزعجها الآن وفجأة كرهت ضعف جسدها إذ أنها أحست بالذبول رويداً رويداً، وأن الدم بدأ يجف من عروقها.. لن يغمى عليّ.. استوت في جلستها تحدق بازدحام السير.. لن يغمى عليّ..

قال ايزاك متفائلاً:

ـ إنه الحر كما أظن.

ـ إنه هكذا فعلاً.

الحرّ، الضجيج، ضغط السير في لندن، ذلك الاحساس الملحّ بالعجلة الذي يتملك المرء في مدينة كبيرة.

أغمضت ميلاني عينيها تفكر بشاطىء هادىء، حيث زعيق طيور البحر يأتيك من بعيد، والنسيم عليل عابق برائحة البحر... توقفت السيارة مجدداً عند إشارة مرور، فقال:

ـ تحتاجين إلى راحة طويلة.

كان صعباً عليها أن تبقى جفنيها إلى فوق، لكنها نجحت. وقالت:

ـ ايزاك.. سئمت أن أعامل وكأنني من زجاج.. القليل من العمل لن يقتلني.

ـ لكن ذات الرئة مرض خطير.

ـ أعرف هذا. لقد درست هذا المرض عن كثب في السنوات السبع الأخيرة.

ـ أواثقة أنت أنك تريدين هذه الوظيفة؟

تنهدت:

ـ أجل.. أنا أفضل حالاً الآن.. أتحسن يوماً بعد يوم وما أحتاجه الآن شيء يبقيني مشغولة.. أنا لست من النوع الذي يستطيع الجلوس دون عمل شيء طوال النهار.. سأجن لو اضطررت لهذا!

نظر إليها ايزاك موافقاً:

ـ إنك على حق.

كان رجلاً ضخماً عريض المنكبين، طويل القامة، شعره موشى بقليل من الرمادي ووجهه ذا قسمات جد شابة. لطالما فكرت ميلاني أن نمط حياته يعطيه ذلك المظهر الشاب؛ حياته صفحة بيضاء، لم تكتب عليها السنين حتى الآن الكثير.

كان يعيش مع أمه، سيدة صغيرة الجسم حديدية الارادة، تدير له حياته دون شفقة، وتنوي أن تختار كنتها بنفسها... لكن ميلاني لم تكن على لائحتها فالسيدة دانفر أوضحت هذا في أول يوم تم لقاءهما فيه. وأوضحت ميلاني بدورها أن ليس لديها مثل هذا الطموح.. صحيح أن ايزاك محبوب، لكنه لم يكن من تتمناه زوجاً لها.. وما إن أبعد هذا الموضوع عن الطرح، حتى أصبحت والسيدة دانفر صديقتين.. مع ذلك، كان ايزاك يجهل كل شيء عن هذا، فالحرب القصيرة جرت من فوق رأسه.. ولطالما قال لميلاني كم هو سعيد لاتفاقها مع أمه.

حين بدأت ميلاني تستعيد عافيتها من المرض الطويل، تفاجأت بالطبيب يطلب منها عدم العودة إلى المستشفى قبل ستة أشهر على الأقل.. أضاف الطبيب بصراحة:

ـ لم يتم شفاءك تماماً، عليك القيام بعمل بسيط في مكان آخر. سافري إلى الخارج... اذهبي إلى الريف لبضعة أشهر إذا استطعت. افعلي أي شيء تشائين. لكن، ابتعدي عن عنابر المستشفى إلى أن تعودي إلى حالتك الطبيعية.

كانت في حديثها عن الأمر مع ايزاك.. ممزقة بين التوتر والبؤس.. إنها ممرضة متمرنة، ولا تريد أن تصدق ما سمعته لتوها.. وقال لها ايزاك يومها مفكراً:

ـ يجب أن تكوني متعقلة.. وأعتقد أنه لا مانع لديك من السفر.

بدأت ميلاني بالضحك:

ـ أتود التخلص مني.. ايزاك؟

ليس بالإمكان ممازحته، فهو يأخذ كل شيء بجدية:

ـ يا إلهي! لا! مجرد فكرة خطرت ببالي.. أحد زبائني يبحث عن فتاة رصينة لتعتني بحفيدته..

ـ لست ممرضة أطفال ايزاك.

ـ إنها ليست طفلة... بل شابة.

سألت باهتمام:

ـ كم عمرها؟

ـ ستة عشر سنة.

أحست ميلاني لسبب ما بأن ايزاك كان يحاول أن لا يقول الكثير عن الفتاة، فقد تابع بسرعة:

ـ ستسافر السيدة هاڤري إلى الخارج وتأخذ الفتاة معها.. لكنها تشعر أنها لن تستطيع الاعتناء بها لوحدها دون مساعدة. ما تريده، هو فتاة شابة لترافق ستيلا.. لكن على قدر كاف من النضج لأن تكون مسؤولة عنها.

ـ نوع من المرافقة؟

هز رأسه بسعادة:

ـ بالضبط.. ولن يكون هذا متعباً لك ميلاني.. ستسافرين أحياناً، لكن في أكثر الوسائل راحة ورفاهية.

ـ أهم أغنياء؟

زبائنه دائماً أغنياء.. وهو يحبهم كذلك.. وهو يهوى الزبائن ممن لهم بيوت ذات أسماء رنانة.. فهذا ما يجعله يبدو محنكاً؛ رجل يفهم الدنيا، كانت ميلاني تنظر إليه متسامحة وعيناه تومضان سعادة.. ايزاك فعلاً رجل لطيف.

ـ زبونتي هي ڤيوليت هاڤري.

جفلت مفكرة، لان هذا الاسم يذكرها بشيء.. لكنها غير واثقة مما هو:

ـ ڤيوليت هاڤري؟

بدت الصدمة على ايزاك:

ـ زوجها برنارد هاڤري!

ـ ملك النقانق؟

صحح معلوماتها بتعال وذهول:

ـ مؤسسة تصنّع النقانق، إضافة إلى أشياء أخرى..

لم يكن يحب ذلك النعت المعروف عن السيد هاڤري.

ـ لكن الصحف تسميه ملك النقانق.

تذمر ايزاك:

ـ أنت تقرأين الصحف الركيكة.. لكنه ليس زبوني.. بل زوجته، وهي امرأة فاتنة.

نظرت إليه ميلاني متسلية:

ـ أهي فاتنة حقاً؟

كان ايزاك سريع التأثر بالسحر الانثوي، خاصة في النساء المتقدمات في السن، اللواتي يجتمع فيهن السحر والمال والشهرة.

ابتسم وقال بإصرار:

ـ فاتنة جداً.

سألته بحشرية:

ـ كم عمرها؟

ـ لست متأكداً.. حوالي السبعين، على ما أظن.

بهذا قلب ايزاك الصورة التي بدأت تتشكل في ذهن ميلاني عن امرأة شديدة السحر فتنته من أول نظرة. وأكمل يسأل:

ـ هل أرتب لك مقابلة معها؟

ووافقت بعد لحظات تردد حين قال لها انها من ذلك النوع من الفتيات التي تبحث عنه.

كانت ميلاني فتاة نحيلة، متينة الجسم، ذات شعر ناعم منسدل.. وكانت بنيتها، ولون بشرتها يعطيانها رقة خارجية تخفي قوة شخصيتها.

كان ايزاك يعتبر تلك النظرة الانثوية الهشة وكأنها المرأة كلها.. لشد ما كانت مفاجأته لو أخبرته ميلاني أنها أقسى عوداً مما يتصور.. فهو يحب الفتيات الرقيقات.

لم يكن جهله لطبيعتها الحقيقية امراً ذو أهمية، فهو لم يطالبها بشيء لم تكن مستعدة للقبول به.. أقرب ما وصلا إليه نحو الرومانسية، هو مشاركتهما علبه مناديل ورقية وهما يشاهدان فيلماً حزيناً.

كان ايزاك هو الأخ الذي لم يكن لميلاني يوماً.. كما كانت تدرك انها الأخت التي لم تكن لايزاك.

كانت السيدة هاڤري تسكن شقة كبيرة في فندق تطل على حدائق القصور الملكية في لندن. ترك ايزاك سيارته مع البواب ورافق ميلاني إلى المصعد.

كان هناك سجادة ممتدة من باب المصعد وحتى نهاية الممر المحاط بالمرايا ذات الزوايا والتي كانت تظهر صورتيهما وهما يمران عبره.. رأت ميلاني وجهها الشاحب منعكس في إحدى المرايا ومما زاد في شحوب وجهها تلك البذة البيضاء التي كانت ترتديها.

فكرت ميلاني في نفسها: أبدو كجثة متحركة..

انفتح الباب بعد انتظار طويل.. وأخبرت تعابير وجه ايزاك المتجهمة ميلاني أن الفتاة التي ترى هي ستيلا الشهيرة. وقد كانت ترتدي بنطالاً حريرياً نبيذياً فضفاضاً مربوط عند الكاحلين بشرائط، أفلتت إحداها وأخذت تتجرجر ورائها. فأشارت إليها ميلاني مبتسمة:

ـ قد تتعثرين بسبب هذه.

بدت ستيلا غاضبة.. لكنها انحنت لتربط الشريط بحدة. انسدل شعرها الأسود الطويل إلى الامام ليخفي وجهها، لكن ميلاني رأت ما يكفي ليجعلها تعيد التفكير في هذه الوظيفة.. قال ايزاك بصوت متوتر أجش:

ـ لدينا موعد مع السيدة هاڤري.

ردت الفتاة وهي تستقيم:

ـ ستلتقيكم بعد لحظات.

ثم أخذت تحدق بميلاني التي كانت تقوم بالأمر عينه. كان لستيلا عينان لوزيتان، ورموش طويلة محددتان بخط بني، ومما زاد على حدتهما نظرة حزينة، تخفي عدائية.

لم يتحمل ايزاك نظرتها بسهولة، فأخذ ينتقل من قدم إلى أخرى في حركة قلقة. وبدا أن الفتاة لم يكن لديها ما تقول، لكن كانت عيناها تبرزان كراهية بارزة جعلت ميلاني تشعر برغبة في مغادرة المكان دون لقاء السيدة هاڤري.

أخفضت نظرها قليلاً، لترى يدي الفتاة وقد اشتدتا في قبضتين إلى جانبها، ولاحظت أنهما ترتجفان قليلاً، مما يدل على أنها ليست هادئة على أي حال.. ثم رفعت نظرها بسرعة ليقع نظرها على تلك العينين السوداوين قبل أن تتاح لستيلا فرصة إخفاء ما فيهما من تعبير. وفكرت ميلاني: لا.. إنها ليست هادئة كما تحب أن أظنها.

انفتح باب وظهرت السيدة بسرعة تقطع الانفاس.. للحظات لم تستطع ميلاني أن تصدق أن هذه هي السيدة العجوز التي جاءت لتقابلها.. ثم، تقدم ايزاك إلى الامام محولاً الارتباك في وجهه إلى ابتسام، ويده ممدودة:

ـ سيدة هاڤري.. كم تسرني رؤيتك مجدداً!

ـ آسفة لأبقاءك منتظراً ايزاك. كنت أتحدث على الهاتف ولم أستطع ترك المخابرة، مع أنني حاولت.. هذا لطف منك.. أليس كذلك ستيلا؟ كرم منك إزعاج نفسك لأجلنا، ونحن نقدّر لك هذا.

وفيما هي تتكلم، كانت عيناها السوداوان الصغيرتان تنظران إلى ميلاني، ثم إلى ايزاك، ثم إليها لتأخذ كل تفاصيلها، حدة النظرات هذه تشابه حدة نظرات حفيدتها تماماً.. إضافة إلى قسمات وجهيهما.. كانت تسريحة شعرها الرمادي الشابة تضفي على شكلها شيء من الغرابة جعلت

شعرها يبدو وكأنه مصبوغ واصطناعي. وكان لعينيها تلك النظرة الذكية الجريئة المتفهمة، لما لها من خبرة واسعة. كما كانت تتمتع بجسد مستقيم يليق بامرأة أصغر سناً ومما يزيد في سحرها حركاتها الخفيفة والرشيقة ومعصميها الأنيقان، بينما كانت تلوح بيديها التي كانت تزين أصابعهما الخواتم. أحست ميلاني، على عكس أول انطباع، أنها ستحبها.

كان ايزاك يقدم احداهما للأخرى حين مدت يدها لتصافح ميلاني وهي تدقق في تعابير وجهها:

- أجل.. أستطيع أن أرى أنك كنت مريضة.. هل أنت واثقة أنك أفضل حالاً لدرجة تمكنك من السفر إلى الخارج؟

ترددت ميلاني مبتسمة:

- أظن هذا.. ما زلت أحس بتعب لحظات معينة لكنني أتحسن مع كل يوم.

- لن نغيب أكثر من اسبوع.. قال ايزاك إنها ذات الرئة!

- أجل.. ولقد مررت في أوقات سيئة.. فقد كنت أعمل بجهد كبير.

- تعالي لنجلس ونتناول القهوة.. ستطلبها ستيلا لنا.

قادت السيدة هاڤري ميلاني إلى أريكة في الجانب الآخر من الغرفة. واقبل ايزاك خلفهما، ليجلس على مقعد قريب، يداه على ركبتيه، يحدق بهما برضى.. نظرت ميلاني إليه بقلق حنون... كان سعيداً بنفسه ظناً منه أن خطته ستنجح.

كانت ستيلا تتحدث في الهاتف.. ثم عادت ويدها تبعد شعرها الأسود الكثيف عن وجهها بطريقة غاضبة وقالت:

- ستصل القهوة بعد قليل.

نظرت إليها جدتها بابتسامة ناعمة وقالت:

- لماذا لا تذهبين لتغيري ملابسك، عزيزتي؟ فهذه الثياب غير مناسبة

للخروج وتناول الغداء.

- بلى... سأفعل.

إنها من ذلك النوع من الناس الذي لا يقدم أي تنازلات.. وراحت تمضغ العلكة داخل فمها فيما هي تراقب جدتها كهرة تراقب فأراً. وكان لميلاني انطباع أنها تتمتع بالقدرة على التلاعب مع من هم أكبر سناً. وتتحداهم.. وهي تتذكر تماماً هذا الشعور.. إذ انه عند الأطفال السعداء كان هذا الشعور وسيلة يفرض من خلالها الأطفال الطريقة التي يودون التعامل معهم بها. أما عند الأطفال التعساء فهو شكل من أشكال التمرد، وفعل انتقام.

استدارت السيدة هاڤري إلى ميلاني:

- لا يمكنها الخروج للغداء وهي ترتدي هكذا.. أليس كذلك؟

نظرت ميلاني إلى البنطلون الحريري الواسع:

- أوه.. الجميع يرتدون هكذا هذه الأيام سيدة هاڤري.. إضافة إلى أن هذا البنطال يناسب نحول ستيلا. فهذه الملابس تجعل المرء عادة يبدو كالحصان ذو الشعر على قوائمه.

نظرت إليها ستيلا نظرة حادة واختفت. ورفعت السيدة هاڤري يدها إلى فمها وكأنها فتاة صغيرة لتضحك.. وضحك ايزاك متعاطفاً رغم عدم فهمه لما قصدته ميلاني.

نظرت الجدة من فوق كتفها لتتأكد من إقفال الباب وأن ستيلا ليست على مرمى السمع، وقالت:

- إنها الآن في المرحلة الصعبة.

أطبقت يدها فوق يد ميلاني بقبضة قوية، وأكملت بصوت منخفض:

- واجهنا الكثير من المتاعب معها مؤخراً. أعتقد أن الأمر صعب على طفلة لا أم لها.. إنها تكبر بسرعة.. والمدارس لا تعرف كيف تتعامل معها.

قال ايزاك ناصحاً:

- يد حازمة . . هذا ما تحتاجه .

ابتسمت السيدة هاڤري له، لكن عينيها كانتا تشعان بعدم الموافقة . . كان لها طريقة في أن لا تقول ما يجول في خاطرها فقد بدت معتادة على التعامل مع رجال صعبي المراس . تعلمت ميلاني أن تفعل هذا في العنابر، قرار الطبيب نهائي، حتى ولو كانت الممرضة واثقة تماماً أنه مخطىء . . ولقد تعلمت ميلاني أن توصل عدم موافقتها دون أن تقول شيئاً . . وها هي تتعرف على هذا التكتيك في السيدة العجوز . . . وسألت :

- ألديك أحفاد آخرين؟

أدارت السيدة هاڤري نظرها إليها وردت :

- لا . . إنها الوحيدة . . ولا يظهر على ابني دليل رغبة في أن ينجب غيرها .

بدا في صوتها نبرة حزينة لكنها رسمت ابتسامة واهية ونظرت إلى ميلاني .

- هل ارتادت ستيلا مدرسة داخلية؟

- أجل، حين كانت في الثامنة من عمرها .

ثم نظرت إلى ميلاني محدقة مدركة ما تفكر به وتابعت : «أجل، أعتقد انها صغيرة جداً، لكن والدها أصر على ذلك إذ أنه يعتقد أن ذلك قد يساعدها على الانضباط» .

أوه . . إنه اذن من ذلك النوع من الآباء؟ نظرت ميلاني بطرف عينها لترى أن ايزاك يهز رأسه موافقاً . وقال :

- لقد انخرطت مع مجموعة مجنونة في آخر مدرسة لها . . وشعرنا بارتياح شديد في إبعادها عنهم .

- إنها في السادسة عشرة؟

هزت السيدة رأسها، وتمتمت متنهدة :

- لا أستطيع التعامل معها . . تجعلني أشعر أنني عجوز .

هذا ليس مستغرباً في سن السبعين، لكن من الصعب التصديق أن

السيدة هاڤري تقارب ذلك السن . .

احتج ايزاك على الفور :

- بحق السماء . . أنت لست . . .

خانته الكلمات، لكن تعابير وجهه كانت صادقة بما يكفي لاجتذاب ابتسامة جديدة من السيدة هاڤري . . فذلك الاعجاب الطفولي محبب لنفسها، وهي معجبة بايزاك . .

قالت لميلاني، ونظرتها حزينة :

- لقد طردوها . . لا يبدو أنها قادرة على الاستقرار في مدرسة .

استطاعت ميلاني أن تعرف السبب، فلستيلا عين ثائرة . . لا شك أنها تعلمت كيف تتعامل مع الأكبر منها سناً في سن مبكرة . وقالت :

- إنه سن صعب .

تدخل ايزاك :

- ميلاني معتادة على إبقاء الفتيات الصغيرات في حالة انضباط .

تلقى نظرة من ميلاني جعلته يتململ في مقعده . . فقالت السيدة هاڤري له، لكن عينها كانت على ميلاني :

- ما تحتاجه ستيلا شخص يفهمها .

قال ايزاك موافقاً :

- طبعاً .

سألت ميلاني، محاولة تغيير الموضوع :

- أظنكم ستسافرون إلى أوروبا .

مسكين ايزاك كل ما يريده هو ارضاء الجميع . . ولا يلام لدوام ارتباكه . . ردت السيدة :

- أجل . . اولاً إلى باريس، لشراء بعض الثياب . . ثم إلى إيطاليا، أو ربما اليونان . . فستيلا لم تشاهد والدها منذ وقت طويل ويجب أن تمضي بعض الوقت معه . وهو يمضي بضعة أسابيع في اليونان كل سنة .

لكن، أتروق هذه الفكرة للأب؟ لقد سمعت ميلاني القليل جداً عن

والد ستيلا، عدا عن انه ابن السيدة هاثري الوحيد، نتيجة زواجها الاول، بصاحب شركة سفن يوناني.

قالت السيدة:

ـ إنه مشغول جداً.. وليس لديه الوقت الذي يتمناه ليمضيه معها.

التقت عيونهما، وقرأت ميلاني اعترافاً متردداً في العينين السوداوين. جوليانوس بيلانوس، ليس بالرجل الذي يحب العائلة، بطبيعته. وحياته لم تكن منظمة بطريقة لترك الكثير من المجال لابنته.. وسألت ميلاني:

ـ هل ماتت أمها مؤخراً؟

ـ حين كانت ستيلا في الرابعة.. وأخذتها تحت رعايتي بعد ذلك إلى أن ذهبت إلى مدرسة داخلية..

بدا أن السيدة لا تريد الحديث في هذا، فنظرت إلى زي الممرضات الذي ترتديه ميلاني:

ـ لست مضطرة لارتداء هذا.. أليس كذلك؟ أكره أي شيء يذكرني بالمستشفيات.

ـ كما ترغبين.

كانت قد ارتدت الزي لتعطي الصورة الصائبة.. فقد ينظر إليها ايزاك كشابة ضعيفة، لكنها تعلم أن زيها أفضل دليل على شخصيتها الحقيقية.

بدا أن السيدة لا ترغب في خوض غمار هذا الموضوع أكثر من ذلك فقالت:

ـ أخبريني المزيد عن نفسك عزيزتي.

ـ ما الذي تريدين معرفته؟

لم تكن ميلاني قد أجرت مقابلة توظيف من قبل، فقد عملت في المستشفى منذ أن كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وحياتها كانت محصورة بين جدران المستشفى.

ـ ما الذي دفعك إلى التمريض؟

ابتسمت ميلاني بأدب:

ـ أعتقد أنني أحببت فكرة أن أكون ممرضة.

لكن إخلاصها لعملها كان أعمق مما تنوي أن تعترف. والداها قتلا إثر حادث تحطم سيارة حين كانت في الخامسة عشرة، وكانت في مؤخرة السيارة ونجت بإصابات طفيفة. لكن أمها ماتت بين ذراعيها على حافة الطريق. لم تستطع ميلاني أن تنسى إحساسها بالعجز والبؤس.. أحست لو أنها فقط تعرف ما يجب فعله فقد تتمكن من إنقاذها.. لقد تركت هذه التجربة في نفسها رغبة لا يمكن محوها بأن تصبح ممرضة.

مع أن لميلاني إحساس عميق بالمرح. إلا أنها بطبيعتها جدية.. لطالما اضطرت إلى إخفاء مرحها في العنابر حتى أصبح هناك طبيعة أخرى لها، وهي أن تبقى هادئة متحفظه.. ومما ساعدها على هذا نعومة مظهرها فقد كانت تبدو في بذلتها الرسمية وكأنها لم تضحك في حياتها.

ولم يترك اخلاصها لعملها لها كثيراً من الوقت للحب، فهي غالباً ما تكون تعبة، حتى أن حماماً ساخناً، ونوم مبكر، كانا يروقان لها أكثر من موعد مع رجل.

لقد فاجأها مرضها لشدة ما كانت تركز على عملها لدرجة أنه لم يخطر ببالها أن تتأكد من سلامتها صحياً بين وقت وآخر. وحين انقلبت إصابة بسيطة بالرشح إلى ذات الرئة، وبخها طبيبها ولو بلطف، لمبالغتها في العمل..

كان هو على الأرجح من أنقذها خلال استبداد أزمة المرض بها. لم تكن قوتها تكفي لتتغلب على المرض لدرجةاستلزمت مساعدة كل الجهاز الطبي في المستشفى.

كانت السيدة هاثري تتكلم عن ستيلا حين عادت ميلاني من ذكرياتها المريرة للماضي... وكانت تسأل:

ـ أتظنين أن بإمكانك التعامل معها؟

ردت مرتابة:

ـ سأحاول.

صحيح أن ستيلا تبدو صعبة المراس. لكنها لم تكن تبدو مستحيلة الاصلاح. قالت السيدة هاثري بتنهيدة طويلة عميقة:

ـ كل ما أرغب به هو ان أبعدها عن المتاعب. لن أدّعي بأنها سهلة، لكنني متعلقة بها جداً.. وآمل أن أقنع والدها أن ينضم إلينا بين حين وآخر. قد يكون مشغولاً كثيراً، لكنه يجب أن يجد الوقت ليأتي، خاصة حين يعرف أن هناك من يعتني بستيلا ويمنعها من إزعاجه.

راحت ميلاني تفكر في نفسها.. من الواضح، أن لا أحد يريد ستيلا.. لقد أُرسلت إلى مدرسة داخلية في سن صغيرة جداً، فتمردت ضد كل من حولها، وبكل طريقة تمكنت منها، الأمر الذي أدى إلى نفور الجميع منها.

كانت السيدة هاثري تراقب ميلاني، وقالت كأنما تدافع:

ـ ليس منا من هو صغير السن، وليس من السهل التعامل مع ستيلا.. حتى أن إدارة مدرستها وجدتها فعلاً مزعجة، ولم يستطيعوا التعامل معها، فكيف يمكن لي أو لبرنارد أن نأمل بهذا؟

ابتسمت ميلاني لها، وقد شاهدت القلق والانهزام في عينيها.. فالسيدة هاثري لم تكن عمياء عن مشاكل ستيلا.. فهي تعرف أن حفيدتها لم تكن سعيدة، لكن ربما كانت تحس حقاً أنها أكبر سناً من أن تفعل شيئاً.. ولم يكن سهلاً على ميلاني قراءة حقيقة شخصيتها من وراء هذا القناع الناعم الزائف.. فالحياة تركت آثارها على السيدة هاثري في الماضي... ومع أنها نجحت في إخفاء هذه الآثار، وخففت منها بجراحات تجميلية، والماكياج، إلا أن عيناها كانتا تفضحان أن كل مالها لم يتمكن من شراء راحة بالها، وبالرغم من تصرفاتها الحيوية، والبريق المتكلف في المجوهرات والملابس الفخمة، فهي ليست امرأة مرتاحة راضية.

كان ايزاك يتمتم موافقاً على ما يسمع محاولاً أن يرسم الاطمئنان والهدوء على وجهه. وما إن نظرت ميلاني إليه حتى رأت ذلك الاضطراب

يشع من عينيه ومردّ هذا إلى سير الحديث، فلقد شعر ايزاك بعدم ارتياح ميلاني.

أعادت ميلاني نظرها إلى السيدة هاثري وقالت:

ـ ألا يستطيع ابنك أن...

فقاطعتها السيدة بضحكة خفيفة، ولمعان متوتر في عينيها السوداوين الحزينتين:

ـ جوليانوس دائماً مشغول.. لكثرة مسؤولياته.

انفتح الباب ودخلت ستيلا إلى الغرفة بعد أن غيّرت ثيابها، وارتدت بذلة بلون الكريم مع بلوزة. نظرت جدتها إليها بارتياح وموافقة لكن ستيلا تجاهلتها، وراحت تنظر إلى ميلاني بفظاظة.. وكأنما تتحداها أن تبتسم..

توجهت بعد ذلك إلى النافذة وهي تسند رأسها بيدها وراحت تنظر إلى سماء لندن من فوق رؤوس الأشجار، وكأنها البحّار يراقب الأفق البعيد.. إن ستيلا تحاول على الدوام توجيه الاهتمام إليها. أهذا ما تريده دائماً؟ هل القصد من تمردها وفظاظتها إجبار الكبار غير المكترثين بها، أن يركزوا اهتمامهم عليها... ولو فعلوا ذلك على مضض؟

قالت السيدة هاثري:

ـ ستيلا.. الآنسة فرايزر.. لا.. لا أستطيع مناداتك هكذا طوال الوقت! أيمكن أن أناديك ميلا؟

وابتسمت، فردت ميلاني الابتسامة وهزت رأسها موافقة، فتابعت السيدة تحدث ستيلا قائلة:

ـ ستيلا.. قررت ميلا أن تأتي معنا.

فعلّقت ستيلا دون أن تزعج نفسها وتستدير لتواجههم:

ـ أوه... عظيم.

نظرت السيدة هاثري إلى ميلاني باحراج شديد فوقفت ميلاني تبتسم، ووقفت السيدة أيضاً وهي تمد يدها:

ـ سرّني اللقاء بك. أنا واثقة أنك وستيلا ستتفقان تماماً..

نظرت بسرعة وارتياب إلى ظهر الفتاة الصامتة عند النافذة، وكانت على وشك أن تكمل الحديث، عندما انفتح الباب، ودخل رجل إلى الغرفة.

استدارت السيدة هاڤري باستغراب وشهقت رافعة يدها إلى عنقها:

ـ هل دهشت لرؤيتي؟

كان له صوت أجش دافىء، فيه شيء من السخرية.. حتى أنه لم ينظر إلى الغريبين في الغرفة، وكأن وجودهما لم يلفت انتباهه.

تحركت السيدة هاڤري نحوه قائلة:

ـ لماذا لم تدعني أعرف بمجيئك إلى لندن؟ ماذا تفعل هنا؟ ظننتك في نيويورك، أو أثينا.

انحنى ليضع شفتيه بخفة وبرود على خدها، ثم قال:

ـ أنا هنا في عمل، مرحباً ستيلا.

تقدمت إلى الامام، وأدارت له خدها بامتعاض.

راقبت ميلاني وجهه بتمعن فقد عرفت من هو لحظة دخوله الغرفة، لكنها لم تكن لتعرفه من الصور التي شاهدتها له في الصحف، فهو يبدو أكثر وسامة مما يبدو عليه في تلك الصورة. كان رجلاً طويلاً رشيقاً، تنم طريقة سيره عن حالة من القلق.. ذو بشرة سمراء.. لصوته لكنة غريبة محددة في بعض الكلمات، لكنه كان يستخدم الانكليزية بطلاقة ودون أي تردد.

قال لستيلا:

ـ لقد تغيرت.

احمر وجه الفتاة:

ـ وماذا كنت تتوقع؟ أكنت تعتقد أنك ستراني في سروال رياضي؟

بدا الذهول واضحاً على قسمات وجهه وقال بنفاد صبر:

ـ هل أنت بخير؟

تفاجأت ميلاني بجفاف حديث الوالد مع ابنته، وكأنها غريبة.. لعلها غريبة فعلاً؟ لعل جوليانوس بيلانوس بالكاد يعرف ابنته؟

لم تكن ستيلا تزعج نفسها بإخفاء عدائيتها نحوه.. وسألته:

ـ لماذا تهتم؟ مرت شهور عدة منذ رأيتك.

رد باختصار:

ـ أنا مشغول، وتعرفين هذا.

ـ أنت هكذا دائماً!

ـ لدي الكثير من المسؤوليات.

وضع يديه في جيبيه وهو لا يزال ينظر إليها بالعصبية ذاتها. كانت ملامح القسوة واضحة على وجهه المستدير ذو الأنف المستقيم، أما شعره فهو أسود كثيف وشديد اللمعان. يا له من وجه مثير للاعجاب رغم أنه لا ينم عن اكتراث لضعف الآخرين.

صدمت ميلاني لشدة الشبه بينه وبين ابنته.. رغم أن وجه ستيلا كان يوضح عدم اكتمال شخصيتها وصغر سنها مقارنة بسن والدها.. لكن الشبه الشديد بينهما كان واضحاً فيما هما يحدقان ببعضهما. إن ستيلا عنيدة.. فهل هذا ما ورثته عن والدها؟

قال محاولاً إسترضاء ستيلا:

ـ لم أكن أعلم بوجودك مع جدتك..

لكنه فشل، نظرت إليه ستيلا بحدة وقالت:

ـ أنت بالكاد تعرف أنني حية اصلاً. فلماذا تعرف أين أكون، أو ماذا أفعل؟

تنهد بعمق وقال بصوت أجش.

ـ لا تتكلمي معي هكذا!!

هزت ستيلا كتفيها بطريقة مهينة.. واستدار والدها ليكلم أمه.. فشاهد ميلاني وايزاك، فلمعت عيناه بغضب، مما أدى إلى تورد وجنتيه. راقبته ميلاني ببرود، وحاجباه ينضمان إلى بعضهما، بعد أن أدرك أن لقاءه

www.liilas.com/vb3
Aml

الغريب مع عائلته كان بحضور غريبين.

اشارت السيدة هاڤري بيدها إلى ميلاني وايزاك!

- جول.. هذا محاميّ الخاص، ايزاك دانغر، وهذه ميلاني فرايزر، التي ستسافر معنا إلى أوروبا.

كرر جوليانوس بيلانوس كلام أمه باستهجان:

- إلى أوروبا معكما؟

نظر إلى ميلاني ثم إلى أمه:

- أوروبا؟ ومتى هذا؟ ولماذا ليست ستيلا في المدرسة؟

- حسناً...

وترددت الأم.. لكن ستيلا قالت بوقاحة:

- لقد صرفت.

أدار رأسه الاسود الشعر نحوها، وتعابير قاسية مرسومة على وجهه:

- ماذا قلت؟

رددت ستيلا بجرأة دون أن تخافه.

- قذفوني إلى الخارج.. صدر أمر بصرفي.. طردت!

فعلق مزمجراً: ماذا؟

ثم استدار ليواجه الغريبين الواقفين قرب الباب وقال وهو يتقدم ليخرجهما إلى خارج الشقة:

- هل تسمحان بأن تتركانا؟

وصفق الباب خلفهما.

وهما يبتعدان، سمعت ميلاني تدفق كلمات عميقة غاضبة.. وقالت بهمس:

- واو!.. هذا ما يسمى بضرب الرأس في السقف! لماذا لم تخبرانه الحقيقة؟ أم إنهما تفضلان إبقاءه جاهلاً؟

تأوه ايزاك وهو يفرك يديه قائلاً:

- أوه يا عزيزتي.. يا لسوء حظك!

- بإمكانك قول هذا مرة أخرى! يبدو لي أنه سينفجر من شدة الغضب! بما أن الأمر قد تكرر سابقاً، فلا شك أنه لم يعد في مدار اهتمام ستيلا نهائياً.

علق ايزاك معترضاً:

- ما من شيء يدعو للسخرية ميلاني. مسكينة السيدة هارڤي.. أعرف كم كانت تهاب من قول الحقيقة لابنها.. إذ أن طبعه حاد جداً، كما يبدو.

- أنت على حق..

وفيما هما ينتظران المصعد عند نهاية الممر، كان لا يزال ايزاك وميلاني يسمعان ذلك الصوت العميق الفظ، وتدفق كلامه الذي بدا دون توقف. وأكملت ميلاني:

- مع ذلك أقول: مسكينة ستيلا!

وافق ايزاك دون تعاطف حقيقي:

- لكنها لم تتصرف بطريقة لائقة.

أكدت بصوت منخفض:

- إذا أبقيت قطة في قفص، فيجب أن تتوقع منها أن تحاول الهرب.

- لا تكوني سخيفة ميلاني.. مدرسة داخلية إنكليزية رفيعة المستوى، لا يمكن وصفها بالقفص.

قالت وهي تخطو إلى داخل المصعد:

- أظن وبناء على ما شاهدته وما قيل لي، لقد أمضت تلك الفتاة حياتها كلها محجوزة في قفص.

* * *

٢ ـ عنيدة!

سأل ايزاك وهما في طريق العودة:

ـ هل أقدم لك الغداء؟

هزت ميلاني رأسها رافضة:

ـ لدي الكثير من العمل لأقوم به، وأنت كذلك. شكراً لك.

لم ينكر انشغاله، فلديه مواعيد كثيرة، رغم أن عمله كمحامي لا يقارن بعملها لأنه يقتصر على أشخاص عدّة. ويفضل ايزاك أن تكون زبائنه من الاغنياء.

سألها وهو يوقف سيارته أمام شقتها:

ـ أتعتقدين أن لك القدرة على التعاطي مع تلك الفتاة؟

ـ لست أدري، لكن من الممتع أن أخوض هذه التجربة.

قال ايزاك بعصبية:

ـ إنها لا تطاق.

ردت بلطف:

ـ لأنها تعيسة.

نزلت من السيارة.. آه، إن رفيقة سكنها لوسيل لن تكون الآن في المنزل، وبإمكانها أن تستمتع ببعد ظهر هادىء دون الاضطرار إلى الكلام مع أحد.. كانت لا تزال على غير استعداد لتمارس حياة طبيعية بين الناس.. التفتت مبتسمة لأيزاك:

ـ سأراك فيما بعد ايزاك.

حضرت لنفسها وجبة غداء خفيفة، وكانت مستلقية على سريرها، حين رن جرس الهاتف.. فردت عليه دون اهتمام.

ـ آنسة فرايزر؟

إنه ذلك الصوت العميق الاجش، لم يكن هناك مجال للغلط وغار قلبها. سيقول لها إنها لن تحصل على الوظيفة.. فتنهدت قائلة: أجل.

قال مؤكداً:

ـ بيلانوس يتحدث.

ردت بصوت رنان:

ـ أوه.. مرحباً.

كادت تركل نفسها لغباوتها.. وقال لها:

ـ آنسة فرايزر، أظن انه علينا التحدث في أمر معين.. هل يمكنك المجيء إلى مكتبي في لندن؟

ـ الآن؟

أجل.. سيقول لي إنني لن أسافر إلى أوروبا.. أوه.. لا بأس، كانت فكرة جيدة، رد باقتضاب:

ـ الآن.

ـ أين..

قاطعها بصوت حاد:

ـ استقلي سيارة أجرة، وقولي للسائق إنك تريدين الذهاب إلى مبنى «وارلد وايد تراست»، ساحة «درايدون».

أخذت ميلاني تعيد العنوان:

ـ ساحة درايدون...

وفيما هي تكرر العنوان أخذ الهاتف يرن بتقطع.. فتقطب جبينها غيظاً ثم أعادت السماعة إلى مكانها.

كانت تنورتها قد تجعدت قليلاً حيث نامت عليها، فقد اعتادت أن ترتاح في فترات متقطعة خلال فترة النقاهة، بعد أن سرّحت من

المستشفى.. في البداية أزعجها إحساسها بالتعب إثر أعمال بسيطة كالتسوق والعمل المنزلي، لقد قال لها دكتور والنغهام، إن كل شيء سيعود إلى طبيعته بالتدريج:

ـ سيستغرق هذا بعض الوقت.. ولأنك بالغت في الأمور سابقاً.. ها أنت تدفعين الثمن.

كانت تراقب حالتها، وأدركت أنه محق.. أيقنت كذلك ورغم أن أوقات راحتها كانت تقل يوماً بعد يوم، إلا أنها كانت تتحسن.

اختارت بدل بزتها تلك بزة بسيطة من الكتان البني، تعطي انطباعاً بارداً ورسمياً. دون أن تغير البلوزة الحريرية الكريمية اللون التي ارتدتها تحت البزة السابقة، والتي كانت كافية للتخفيف من قتامة اللون، وهكذا رضيت عن الألوان التي ستكون فيها بعد الظهر.. ولقد أدّت الاستراحة القصيرة ومكالمة السيد جوليانوس بيلانوس لها، إلى تورد وجنتيها.. مشطت ميلاني شعرها الأشقر إلى أن أصبح منسدلاً تماماً فرأت انها تبدو أفضل حالاً مما كانت عليه مؤخراً.

كما قيل لها استقلت سيارة أجرة، وشق السائق طريقه عبر زحام السير في لندن إلى ساحة «درايدن» وكانت خلف شارع «اوكسفورد»، وليس بعيداً عن «ماربل آرك» حيث رأت مبنى «وارلد وايد ترست» قبل أن تصله.. ذلك المبنى من الحجر الأخضّر والصفوف الكبيرة من النوافذ الظاهرة فوق سطوح المباني الأخرى..

سارت ميلاني إلى المبنى، عبر أبواب زجاجية قاتمة متحركة، تعطي البرودة إلى البهو الرخامي العاجي اللون.. وبدا لها وكأنه مدخل فندق فخم أكثر من أن يكون مدخلاً لمكاتب. وكانت تجلس خلف طاولة عريضة مصقولة، فتاة في فستان حريري أسود، ابتسمت لميلاني بترحاب بعد أن توقفت لتتطلع حولها:

ـ هل أستطيع مساعدتك؟

ـ أنا هنا لمقابلة السيد بيلانوس.

رأت عيني الفتاة تلمعان قبل أن تبتسم مجدداً بطريقة مختلفة تماماً:

ـ هل من موعد سابق؟

ـ أجل.

ـ تفضلي بالجلوس، أرجوك؟ هل ليّ بمعرفة اسمك؟

جلست ميلاني على مقعد مريح مثير، حين رفعت الفتاة هاتفاً، وتكلمت بصوت منخفض.

قالت الفتاة بعد أن استدارت نحوها بابتسامة أكثر دفئاً:

ـ سيأتي أحد لاصطحابك.

وأخذت ترتب مفرش الطاولة الجلدي وهي تتفحص ميلاني من بين رموشها المنخفضة.

فكرت ميلاني: إنها تموت حشرية لتطرح عليّ الأسئلة.. نظرت ميلاني إلى الصورة خلف رأس الفتاة، وتابعت الخطوط الحمراء والسوداء متسائلة عما تعني هذه اللوحة، أو ما تمثّل.

ـ آنسة فرايزر؟

لشدة استغراقها في التفكير فيما تمثله هذه اللوحة، لم تلاحظ وصول رجل، وانحناءه إلى جانبها. وقفت مجفلة، فابتسم لها بحنو.. إنه رجل طويل، نحيل، محدودب قليلاً، أصلع مع شعرات صغيرة سوداء، وجهه خالٍ من أي تعبير. قال:

ـ من هنا.. أرجوك.

أشار إليها نحو الجانب الأبعد عن صفوف المصاعد. فلحقت به إلى ممر جانبي ليتوقف أمام مصعد آخر. أشار لها الرجل أن تدخل، ثم انضم إليها.. ليرتفع المصعد بصمت.

قدم الرجل نفسه بابتسامة خفيفة:

ـ أنا تشارلز وايزلي.. مساعد السيد بيلانوس الخاص..

ابتسمت ميلاني له محيية، تتساءل ما إذا كان عليها إبداء الشفقة عليه أم أن تبدو متأثرة.. في النهاية هزت رأسها فقط.

كان رجلاً في نهاية الأربعين أو بداية الخمسين. يرتدي ملابس فخمة جداً. إنه يعطي انطباعاً بأنه يختبىء، ومن الصعب معرفة حقيقته. صوته منخفض دون توتر. حركاته ناعمة لدرجة التسلل.

ربما هذا ما يدفعه له جوليانوس بيلانوس، ليكون كتوماً، صامتاً، متحفظاً ومختبئاً؟ تساءلت ما مدى أهميته، ولماذا جاء هو لمقابلتها ومرافقتها إلى الحضرة الملكية، أم أن هذا هو قراره؟ هل صاح به بيلانوس «أحضرها إلى هنا» وقرر تشارلز وايزلي أن يقوم بهذا بنفسه كي ينظر إليها جيداً؟

وبينما كانت تتفحصه، كان يبادلها الأمر عينه لأن عيناه الزرقاوان الشاحبتان جعلتاها تحس كمن يتعرض لأشعة أكس.

قال بلطف محدثاً:

ـ طقس جميل.

ـ رائع.

ـ أتعيشين في لندن آنسة فرايزر؟

ـ في «فولهام».

ـ حقاً.. أنت ممرضة في مستشفى سانت إيدان؟

ـ أجل.

أينوي بهذا أن يظهر لها أنه يعرف كل شيء عنها، أم أنه يحدثها فقط؟ سألته..

ـ هل هذا مصعد السيد بيلانوس الخاص؟

ـ أوه.. أجل.

وكان يجب أن يكون هذا واضحاً.. فالسيد بيلانوس، الشهير، لا يمكن أن يشارك المصعد مع موظفيه.

توقف المصعد، وانزلق الباب منفتحاً. خرجت ميلاني إلى رواق عريض، بألوان زرقاء شاحبة، تنيره أشعة الشمس المتدفقة من نافذة كبيرة إلى اليسار.. أشار إليها السيد وايزلي نحو باب... طرقه عليه أجيب

بصوت عميق.. ادخل..

فتح لها الباب، وقال:

ـ الآنسة فرايزر سيدي.

تراجع إلى الوراء لتمر، ولتقع عيناها على جوليانوس بيلانوس على الفور. كان يجلس في أحد جوانب الغرفة وراء طاولة، وخلفه صورة ضخمة لرجل يشبه الرجل الجالس وراء الطاولة، تساءلت ميلاني وهي تتقدم نحوه: والده؟ وعيناها تنتقلان من الحيّ أمامها إلى الصورة، تحاول أن تقرر ما هي علاقتهما.

الحيّ مال إلى الوراء واسند رأسه على مؤخرة مقعده الجلدي، يتأملها بعينيه السوداوين، كانت أصابعه تضرب برتابة على أسفل وجه الطاولة.. وتمتم:

ـ اجلسي.. أرجوك.

كان لديها إحساس أنه أضاف الكلمة الأخيرة بعد تفكير. جلست تواجهه ويداها مضمومتان في حجرها كتلميذة مدرسة أمام المدير.

ـ إلى أي حد أخبرتك أمي عن تصرفات ابنتي في الآونة الأخيرة؟

تركها السؤال المفاجىء دون قدرة على الرد للحظات.. بعد تجميع أفكارها قالت تلوي فمها أمام سخرية عينيه:

ـ القليل.. أعرف أنها طردت من المدرسة وأنها صعبة المراس.

ـ صعبة المراس؟.. أجل هذه احدى الطرق لوصف الأمر على ما أعتقد.

ـ وأنت كيف تصفه؟

عض على شفته السفلى للحظات، ثم تركها وهز كتفيه:

ـ لنقل فقط، إنك وقبل أن تقرري ما إذا كنت قادرة على القيام بالمهمة، أظن أنه عليك أن تعرفي بطريقة أشمل ما تعنيه صعوبة المراس مع ستيلا و...

صمت يفكر. وكأنه يرتقب ردة فعل. فهزت ميلاني رأسها.

- أفهم هذا.

- أقالت لك أمي إنها طردت من مدرستها؟

اطرقت ميلاني موافقة، فأكمل:

- وهل أطلعتك على السبب؟

فهزت رأسها نفياً، ورأت فمه يلتوي مرة أخرى:

- كان لدي إحساس أنها لم تقل لك.. لقد طردت بعد قضائها ليلة كاملة في حفلة لم تحصل على إذن بحضورها.

لم يبدُ هذا فظيعاً.. ربما مزعج، شرير، لكن بكل تأكيد ليس من النوع الذي لا يمكن غفرانه.

حدقت العينان السوداوان في وجهها، وابتسم بتجهم.. هز رأسه، ثم قال بنبرة مؤكدة:

- لا.. ليس الأمر هذا فقط. حين عادت في الصباح كانت في حالة وصفوها لي تأدباً «حالة اهتياج».

نظر مباشرة إلى ميلاني، في عينيه لمعان شديد ثم تابع:

- كانت تتعاطى المخدرات.

صاحت ميلاني بذهول:

- يا إلهي!

- ألم تقل لك أمي هذا؟

تجهم وجهها، فهذا الخبر يغيّر الصورة كلها:

- بكل تأكيد لم تفعل.. أكانت أول مرة؟

- لم يكن هذا واضحاً.. لقد سألتها بنفسي، وادعت أنها المرة الاولى، لكن الله وحده يعرف إلى أي مدى أستطيع تصديقها.

- وماذا كانت تتعاطى؟

هز كتفيه العريضتين، وأرجع رأسه إلى الوراء مجدداً.

- من الصعب معرفة ذلك.. ولا أظنها تعرف بنفسها.. استدعت المدرسة طبيباً بالطبع، لكنها لم تكن في حالة تعطي معها رداً مقنعاً..

فيما بعد قالت إنها لا تتذكر.

انعقد حاجبا ميلاني بشدة، واضطربت عيناها:

- وهل ناقشت هذا معها؟

- أوه.. أجل.

جعلتها لهجته الصارمة تحس بالاسى لستيلا، وأكمل:

- واتصلت كذلك بالمدرسة هاتفياً.. مع أنهم لم يستطيعوا إخباري بأكثر مما أخبرتني به.

ردت ميلاني مفكرة:

- أظن أن هذا كان نوعاً من الإيحاء للفت الأنظار إليها...

كانت تحاول ربط المعلومات الجديدة التي سمعتها، بما كانت تعرفه، ومال جوليانوس بيلانوس إلى الأمام بغضب، وعيناه ملتهبتان ليقاطعها:

- لا تتكلمي هكذا أبداً أمامها! لا أريدها أن تظن بأننا سنغفر لها فعلتها تلك.

ردت عليه، ونظرة الامعان ذاتها في عينيها:

- لم أكن أحاول إيجاد عذر لأي شيء. كنت أحاول فقط أن أفهمها.

- ليس من المطلوب أن تفهميها.. أنت موظفة لتراقبيها كالصقر وإبعادها عن المزيد من المتاعب!

سألت، بشيء من السخرية:

- ألا تظن أن من الأفضل أن أفهم ما الذي يجعلها تتصرف هكذا؟

جفل جوليانوس في مكانه، وضاقت عيناه السوداوان وقال بحدة:

- أستطيع أن أقول لك ما الذي يجعلها تتصرف هكذا.. تنتقم ممن حولها بإثارة المتاعب.

تمتمت، وعيناها الزرقاوان تستقبلان نظرته القاسية:

- أتساءل عن سبب هذا.

رد بسخرية لاذعة:

ـ إنها أنثى!

ارتفع حاجبا ميلاني أمام لهجة العداء في كلماته.. تابع يقول:

ـ ما تحتاجه ستيلا ليس التفهم، بل الانضباط.. لو كان لديّ الوقت، لفعلت هذا بنفسي.. لكن لا وقت لدي في الوقت الحاضر. أردت رؤيتك لأتأكد من معرفتك بحقيقة الموقف. أتظنين أن بإمكانك أن تكوني قاسية معها؟

لم ترد ميلاني، لكن اتساع عينيها تكلم عنها.. الرجل الجالس قبالتها لم يجد صعوبة في فهم معاني تعبيرها.. وقال:

ـ أنت لا تعرفين شيئاً عنا، آنسة فرايزر.. ولو كنت مكانك.. لتحفظت في حكمي إلى أن تتعرفي علينا.

ـ قابلت ستيلا.. ورأيت أنه لن يكون سهلاً تأسيس علاقة جيدة معها.. لكنها ليست سعيدة.. وفي سن السادسة عشر يجب أن تكون سعيدة.

ـ لا تكوني بلهاء، لا يمكن للمراهقون أن يكونوا سعداء.

ردّت ميلاني:

ـ قد يكونون سريعي التأثير.. لكن لا يجب أن يكونوا في حالة تمرد طوال الوقت.

مرت عيناه على بذلتها البنية المحتشمة، وعلى شعرها الأشقر الأملس، والساقين الطويلتين الملتفتين فوق بعضهما بشكل متميز وهي تستند إلى ظهر كرسيها.. ورأت حاجباه يرتفعان ليرتسم على وجهه ملامح الارتياح.. وقال معلقاً:

ـ لا شك عندي بأنك كنت مراهقة مثالية، دون أي تمرد، لكن، لا يجب بناء حكمك باتخاذ نفسك المثال.

احمرّ وجهها:

ـ وإلى أي مدى تعرفها؟

حدق بها قائلاً:

ـ أنا رجل مشغول.

ـ هذا ما قيل لي.

ـ حسناً.. سأقول لك هذا مجدداً.. إن كاهلي مثقل بأعمال يومية تكفي لتوزع على عشر رجال ولقد اعتدت على ذلك لدرجة أنني قد أنوب عن آخرين أيضاً في بعض الأحيان. وليس لدي الوقت لأشرف على حياة ابنتي. حين ماتت زوجتي، كانت ستيلا لا تزال في الرابعة.. وبدا لي من الطبيعي أن تتولى أمي رعايتها، وهذا ما كان.

ـ ألا زلت تظن أنه قرار حكيم؟

لم يبد ارتياحه لذلك، فتنهد وقال:

ـ آنسة فرايزر، لسنا هنا لتستجوبيني. أردت رؤيتك لمناقشة أفضل الطرق للتعامل مع ستيلا.

ردت بنفس لهجته:

ـ إلى أن أعرفها بشكل أفضل، لا أستطيع التخمين.

دفع كرسيه إلى الوراء ووقف، يطلّ عليها من فوق، كان يزيد عن الستة أقدام طولاً، رجل طويل رشيق بكتفين عريضتين وخصر يستدق تدريجياً لشخص في قمة اكتماله الجسماني، بذلته السوداء مفصلة بأناقة، لتزيد من تفصيل الجسد الذي يملأها.. ثبّت نظره عليها، ثم دس يديه في جيبي بنطلونه وأخذ يتأرجح بتفكير واضح.

بعد لحظات، قال:

ـ لا أستطيع أن أحسم ما إذا كنت تستطيعين التعامل معها أم لا. تبدين لي رقيقة المشاعر جداً. كنت أتوقع منك أن تكوني أكثر رجاحة.. أنت ممرضة، كما عرفت؟

ردت، باحساس عميق من العداء نحوه.

ـ أجل. أنا رئيسة ممرضات، ولدي رجاحة عقل تكفي لأن أدير قسماً كاملاً من أقسام المستشفى، مليء بالمرضى. لذلك، أتصور أنني قادرة على العناية بفتاة مراهقة مهما كانت صعبة المراس.

قال بلهجة من يشك كثيراً في كلامها:

ـ هذا ما قد يعتقده المرء.

ـ وسيكون هذا المرء محقاً باعتقاده.

التقت عيونهما.. للحظات، ظنت أنها ترى الضحك في عينيه، لكنه سرعان ما أبعدهما دون أن يبدو على وجهه أي تعبير محدد.

تابع كلامه بجفاء:

ـ حين كانت ستيلا طفلة، كان لها سلسلة متعاقبة من الممرضات. ثم كان لها مربية إلى أن ذهبت إلى المدرسة.. لكن، ما من واحدة منهن بدت قادرة على التعامل معها.. كن يأتين ويذهبن طوال الوقت.

ـ لا بد أن هذا أثّر كثيراً في إحساسها بالاستقرار.

ـ ها قد عدت لهذا.. أنت تقفزين بسرعة إلى العديد من الاستنتاجات، وعلى أساس ضعيف من الدلائل.

ـ أنا أركز وجهة نظري على أسس تعطيني إياها بنفسك.

بدا وكأنه أخذ يتضايق منها:

ـ هذا النوع من النقاش لن يوصلنا إلى شيء. وأنا لست مضطراً لتبرير نفسي أمامك، آنسة فرايزر. تذكري أن ما في شخصية ستيلا هو نتيجة تربيتها.

ـ صحيح؟

أدار ظهره نحوها وسأل بنفاذ صبر:

ـ أتريدين هذه الوظيفة أم لا؟

ـ أجل.

ـ إذن.. بحق الله، توقفي عن مهاجمتي.

استدار مجدداً ليواجهها، وهو يرمقها بنفس النظرة القاسية الساخرة، ثم أكمل:

ـ أرجو أن تكوني عنيدة مع ستيلا كما كنت معي.

ردت وهي تبتسم له:

ـ أنا عنيدة مع الجميع.

تأمل العينين الزرقاوين، وأشعة الشمس تمنحهما ذلك الوميض البراق، وتحول شعرها الناعم إلى إطار ذهبي رائع حول وجهها.. وقالت له مكملة:

ـ إذا كنت سأساعد ستيلا، يجب أن أفهمها أولاً.. ويجب أن تكون واثقة من أنني إلى جانبها.

رد بجفاء:

ـ بدأت أشك أنك إلى جانبها.

ـ لن أحوز على ثقتها لو ظنّت أنني سأهرع إليك أو إلى جدتها لأخبركما بكل ما تقوله أو تفعله.

عاد ليجلس وراء طاولته، شاهدت ضوءاً يلمع على طاولة صغيرة قرب مرفقه، ورأت جوليانوس يستدير نحوها، ثم ينظر إليها:

ـ بكلمات أخرى: تطالبين باطلاق يدك بحرية معها؟

فكرت ميلاني قليلاً.

ـ ضمن شروط محددة.. أجل..

ـ وما هي هذه الشروط؟

ابتسمت له:

ـ أن أبقيها بعيدة عن المتاعب.

ـ وإذا تورطت في المتاعب على أي حال؟

ـ سأحاول إخراجها منها.

ـ دون أن تلجأي إليّ أو إلى أمي؟

ـ بالضبط.

ـ تطلبين الكثير.

ـ كل ما أطلبه هو أن تثق بي.

ـ هذا يجعل الأمر يبدو بسيطاً.. لكنه ليس هكذا. أنت تتكلمين عن ابنتي، وأنت تريدين تفويضاً في التعامل معها. فلماذا أعطيك هذا التفويض؟

نظرت إليه بهدوء:

- هذا أمر راجع إليك.. بالطبع.

- وإذا رفضت.. ألن تقبلي بالوظيفة؟

هزت رأسها إيجاباً، فأخذ يضرب بأصابعه على الطاولة بنفاذ صبر:

- جئت بك إلى هنا لأعطيك تعليمات عن عملك.. لكنني أشعر أن الأمر قد انعكس.

لم ترد ميلاني على هذا.. بدأ الضوء على الطاولة الصغيرة يلمع مجدداً، ومجدداً نظر إليه دون أن يفعل شيئاً.. بل سأل:

- وهل تسمحين لي أن أسأل بالضبط ما هي خططك للتعامل؟

- ليس لدي خطط محددة.. ولست أرى كيف يمكن أن أضع المخطط قبل أن أعرفها. وهذه هي الخطوة الأولى، أليس كذلك؟

بقي ينظر إليها للحظات مطولة، ثم قال أخيراً:

- ربما ستعطينني ملخصاً عما ستجدينه.

ثم مد يده يضغط زراً على الطاولة الصغيرة.

- نعم.. ما الأمر تشارلز؟

رد صوت منخفض:

- نيويورك معك سيدي.

- أوصل لي المخابرة.

نظر إلى ميلاني:

- سأكون ممتناً أن يبقى في ذهنك أنني بالرغم من كل المظاهر أهتم بما يحدث لابنتي.

فهمت ميلاني أنه عليها الانصراف، ووقفت. فهز رأسه لها وتحدث في الهاتف:

- تيم؟ مرحباً.

سمعت ميلاني الباب ينفتح وهي تتحرك نحوه. تراجع تشارلز وايزلي إلى الوراء ليتركها تمر.. ثم أقفل الباب، ورافقها إلى الرواق، ثم إلى

المصعد. وسألها وهما ينزلان إلى الطابق الارضي:

- هل جواز سفرك صالح آنسة فرايزر؟

- أجل.

- هل سافرت كثيراً؟

- سافرت إلى الخارج عدة مرات. لكن في إجازات قصيرة فقط.

توقف المصعد، وانفتح بابه.. خرجت ميلاني إلى المدخل الرئيسي مع تشارلز وايزلي.. وتساءلت إذا كان يريد أن يتأكد من رحيلها، أم أنه يتصرف بلباقة وحسب؟

فتح لها الباب الخارجي وانحنى لها.

- كنت مسروراً جداً بلقائك، آنسة فرايزر.. مساء سعيد.

لم تستقل ميلاني سيارة أجرة أخرى بل ركبت الباص وعادت إلى منزلها وسط تدفق العائدين إلى منازلهم.

رمت لوسيل نفسها على سريرها بعد ساعتين، واغمضت عينيها متأوهة:

- قدماي!

- يوم سيء؟

- محموم! إنه من احد الأيام الذي يسير فيه كل شيء على غير ما يرام. كاد جهاز التعقيم ينفجر، وأصيب أحد التلامذة بالهستيريا... ووصلت حالة زرع كلية، وحصل التباس وكادت الحالة تدخل غرفة العمليات على أساس حصوة في الكلي.. وفوق كل هذا تمزق لي زوجين من الجوارب، واحد بسبب سلة الغسيل والآخر لجلوسي على الكرسي الخشبي في الكانتين.

بدأت ميلاني تضحك:

- بالمقارنة مع هذا كان يومي مريحاً للغاية.

جلست لوسيل، وقالت متفاجئة:

- نسيت أن أسألك.. ماذا حدث؟ وكيف جرت الأمور؟

ـ لست واثقة.. كانت متحفظة، كما يقول ايزاك.. وأظنني أحببتها.. مع أنني لست واثقة من...

نظرت إليها لوسيل متأوهة بسخط:

ـ كيف هو شكل الفندق؟ لم أدخل يوماً إلى مبنى مثله.

ردت ساخرة:

ـ كان فخماً.. لها شقة فخمة في طابق علوي يطل على الحديقة العامة، ويزين الشقة أثاث فاخر لا ترينه إلا في المجلات.. الامر الذي يجعلك تجزمين أنه ما من إنسان بمستوانا المالي يستطيع العيش فيها..

ـ أوه.. وماذا كانت السيدة هاثري ترتدي؟

ـ ثوب زهري اللون، كما أذكر.

ـ ليعطني الله نعمة الصبر.. ثوب زهري اللون!

ـ لكن الحلي طغت عليه.

ـ أية حليّ؟ هيا.. تابعي. لا تقولي إنك لم تلاحظي ما هي!

ـ بل لاحظتها.. من الالماس، معظمها، والكثير منها.. الكثير الكثير.. لكن المسألة مسألة ذوق.. لو كانت لديك مثلاً، أعتقد أنك كنت سترتديها كذلك.

ردت متأوهة:

ـ وسأرتديها.. حتى في الحمام.

ضحكت ميلاني:

ـ وهذا ما سيفقدها بريقها!

ـ وهل كانت متكبرة؟

ردت بدهشة:

ـ لا.. بل ودودة، ومتوترة.. كما أظن.

بدت لوسيل محبطة.. وتساءلت ميلاني، ما الصورة التي كانت تجوب في ذهنها.. وتابعت لوسيل تسأل:

ـ والفتاة؟ كيف كانت؟ أهي بالسوء الذي توقعته؟

ترددت ميلاني ثم قالت:

ـ لا.. بل أنني شعرت بالأسف عليها.

ـ ردات فعلك ليست طبيعية.. إنها ثرية كريهة.. ومما يقوله ايزاك إنها مدللة وصعبة المراس.. فلماذا تشعرين بالأسف عليها؟ أعرف.. لا تقولي لي المسكينة الصغيرة الثرية! فأنا لا أصدق. على الأرجح تهوى أن تجعل الجميع يدور في فلكها.. وهذا ما يعطيها الرضى.

لم تجادلها ميلاني، لوسيل لم ترَ وجه ستيلا أو تكوّر شفتيها، أو مرارة نظراتها لأبيها عند وصوله.. وتابعت لوسيل تسأل:

ـ ما من أثر للأب.. كما أعتقد؟

ـ لكنه ظهر.

ـ وهل قابلته؟

ـ أمضيت ساعة بأكملها معه لوحدنا اليوم.

رمت لوسيل نفسها على الفراش، وذراعيها مفتوحتان، ثم جلست مجدداً، وجهها محمّر باهتياج:

ـ إنها تخبيء الأهم حتى الآخر! كيف هو؟ ماذا قال لك؟ أين قابلته! ميلاني، ماذا حدث؟

ضحكت ميلاني:

ـ حضّري لي القهوة، وسأقول لك كل شيء.

ـ انسانة انتهازية.

هرعت لوسيل لتحضير القهوة، وعادت بعد لحظات مع فنجانين.. ثم قالت بعينين متسعتين:

ـ هيا، هاتي ما عندك.

حين انتهت ميلاني من سرد ما حدث معها، سألتها لوسيل:

ـ أهو وسيم كما تظهر صور الصحف؟

ـ لا بأس به.

ـ دعك من هذا! كان هناك نظرة غامضة في عينيك حين كنت تتحدثين

عنه.. إنه أكثر من «لا بأس به» صح؟

ـ صح.. ويعرف هذا.

استوت لوسيل في جلستها.

ـ هل عبث معك؟

ـ لا تكوني مجنونة.. فلست على قائمته من المؤهلات للاعجاب. كان جاداً وعملياً.

لكنه، وحسبما تذكر، تفحصها بدقة بعينيه الساخرتين ومن ثم قرر أنها لا تثير اهتمامه، وهذا بدوره، ما أثار سخطها.

ـ وهل استهواك؟

ردت بثبات:

ـ ما كنت لأرغب به ولو توسل إليّ.

التأثير الأساسي الذي كان له عليها، كان ذلك الاحساس بالعداء.. فتصرفاته النافذة الصبر، وغضبه الجامح لم يؤثرا عليها.. ولو أنها سمحت له بأن يملي عليها تفاصيل مقابلتهما لكان سيطر عليها وكأنه الآمر الناهي. ما من شك أنه معتاد على اصدار الأوامر بذلك الصوت الاجش، الأمر الذي يجعل الناس يهبّون للتنفيذ.

نطقت لوسيل وهي تتثاءب:

ـ أنت إذن واحدة من أقلية.. فلديه فتيات في كل زاوية من العالم.

ـ أعتقد هذا.. لكن، بالنسبة لي، ينقصه السحر.. لا يعجبني تصرفه مع ابنته.. ولا مع أمه، كذلك لدي إحساس بأنهما يخافانه.. إنه قاس كألسنة اللهب.. خال من المشاعر الإنسانية الطبيعية.

ـ لكنه أعطاك حرية التصرف مع الفتاة.

ـ أتمنى أن يعني ما يقول.. لكنني أراهن أنه عند أول دليل على المتاعب، سينقض عليّ كالذئب على قطيع الخراف.

* * *

٣ ـ لقاء آخر الليل

يستطيع المرء من نوافذ الشقة التطلع إلى ممرات «غابة بولونيا» الخضراء الظليلة. انها إحدى أفخم المناطق في باريس، الشقة التي تقع ضمن وحدة بناء مستقلة حديثة بنوافذ ضخمة وجدران بيضاء مرتفعة، تعطي الانطباع بالسعة والضوء.. كانت ملكاً لشركة بيلانوس، ويستخدمها معظم أفراد العائلة خلال إقامتهم في باريس.

كان بإمكان ميلاني ليلاً أن تسمع عن بعد هدير السيارات تنطلق على الطرقات خارج المدينة. كانت تستلقي لتستمع إلى الأصوات كطفلة تصغي إلى صوت البحر من المحّارة، وكأنما تهدهدها لتنام، لقد كانت تلك الأصوات بمثابة جزء رئيسي من حياتها.. فهي فتاة ولدت في المدينة، ونشأت مع ذلك الهدير المكتوم في أذنيها.

لقد مضى على وجودهم في باريس أسبوعين، كانت الأيام قد اتخذت وجهة مألوفة: تتناول ميلاني الفطور كل صباح مع ستيلا، بينما تتناول السيدة هاڤري الفطور في سريرها.. الكل يتناول نفس الوجبة: طعام خفيف مع عصير البرتقال، القهوة والكرواسان. بعدها تخرج ستيلا وميلاني للتفرج على معالم المدينة والتسوق معاً، بينما تنهض الجدة متكاسلة لتخرج في جولة على بيوت الازياء.

أعلنت ستيلا منذ أول يوم:

ـ لن أرتدي أي شيء من تلك الملابس..

كانت تفضل شراء ملابسها من محلات صغيرة في زوايا غريبة من

المدينة:

ـ أفضل أن أرتدي ملابس فضفاضة.

تمتمت ميلاني وهي تنظر إلى لون فستان ستيلا البني الذي يبرز تفاصيل جسمها:

ـ ظننت هذه ملابس فضفاضة.

تنفست السيدة هاثري أنفاساً قلقة، لكن ستيلا وبعد صمت طويل، ضحكت وقالت لميلاني:

ـ أوه.. تظنين نفسك ذكية، أليس كذلك؟

هكذا أدركت ميلاني أنه من الصعب مصادقة الفتاة مثلما ظنت.. فقد بدا لها، أن ستيلا لديها روح المرح، تخفيها تحت قناع مركب وتعبير مقطب الجبين. لكن تلك الروح موجودة، تبدو كلؤلؤة داخل الصدفة.

كانت ستيلا مستوحدة. لكنها تموت ولا تعترف بهذا.. تغييرها الدائم للمدارس، توترها، أخلاقها الصعبة، تركتها تقريباً دون أصدقاء، لم يكن لديها يوماً من تتحدث إليه، فكتمت امتعاضها، ألمها، وغضبها في نفسها.. وكان ضغط هذه المشاعر المكبوتة يظهر على وجهها الصغير الشاحب. وذلك الضغط بالذات هو الذي قاد إلى هذا التصرف المتحدي.

كان على ميلاني بالطبع أن تعمل على هذا الأساس.. فستيلا لن تمنح ثقتها لأحد دون دليل على صدق نواياه.. يمكن أن تحدث ميلاني لنصف ساعة بطريقة وديّة ثم تتراجع، ويعود لوجهها العبوس مجدداً، وكأنها تخاف أن تترك نفسها تحب احداً.

هذه اللحظات الحساسة هي ما أدّت إلى تعميق الصداقة بينهما.. فقد قالت ستيلا ذات يوم وهي تنظر إلى ميلاني بمرارة:

ـ ثيابك بشعة.. تجعلك تبدين كممرضة خارج عملها.

ردت ببساطة: وهذا ما أنا عليه.

ـ لا أريد الخروج مع ممرضة خارج عملها.. فقد يعتقد الناس أنني لا زلت طفلة.

سألتها ميلاني، مبتسمة ابتسامة سخيفة:

ـ ومن سيظن هذا؟

حاولت ستيلا إخفاء ابتسامتها وسألت:

ـ لماذا لا تحصلين على عدّة جديدة؟

ـ ماذا يعني قولك هذا؟

أحست ميلاني بارتياب مفاجىء للبريق الخبيث الذي ظهر في عيني الفتاة الصغيرة، التي قالت:

ـ تعالي...

وجرّتها إلى أحد المحلات المفضلة لديها، لتشتري لها ما ترتأيه ستيلا مناسب أكثر من الملابس، مجموعة من البنطلونات الواسعة والضيقة، قمصان وبلوزات قطنية قصيرة.

وجدت ميلاني، أنها لو أرادت الذهاب إلى مكان ما مع ستيلا، عليها أن تغير من طريقة لبسها ليتناسب مع ما يعجب ستيلا، لتجعلها مرتاحة أكثر معها.

في اليوم التالي، حدقت السيدة هاثري غير مصدقة حين ظهرت الفتاتان قرب فراشها، وهي تتناول الكرواسان ومربى الكرز الذي تحبه.. وسألتها ميلاني:

ـ كيف أبدو؟

مررت السيدة عينيها ببطء فوق البنطلون البني، المربوط عند الخصر بحزام أبيض عريض، والقميص الحريري العاجي، والسترة القصيرة التي تضعها فوقهما. وتمتمت بارتياب: فاتنة.

صاحت ستيلا:

ـ رائعة.. أليس كذلك.. سنذهب إلى «ڤرساي» اليوم أترغبين بمرافقتنا جدتي؟

ـ لا.. شكراً لك عزيزتي، فهذا متعب لي جداً.

ارتمت ميلاني بعد ظهر ذلك اليوم، في كرسي كبير، تحت ظل

شجرة جميز وارفة الاغصان، وتأوهت:

ـ أنا ميتة! لا أستطيع السير خطوة اخرى.. كم عدد الغرف في ذلك المكان؟

نظرت ستيلا إلى جدران القصر البيضاء وقالت موافقة:

ـ الكثير.. أعتقد أن لويس الرابع عشر كان لديه جيش من الخدم.

كانت الفتاتان قد أمضتا ساعات طويلة تجوبان الغرف المزخرفة بالذهب، تتبعان صفاً طويلاً من السواح.. وكان اليوم حاراً، أشعة الشمس لاذعة والناس من حولهم يشربون المرطبات أو يأكلون المثلجات خلفهم، كان هناك تمثال فارس على صهوة جواده للويس السادس عشر، يلوّح بيده لجيش السواح وكأنه يقول لهم «أدخلوا هذا المكان».

استطاعت ميلاني رؤية ذلك التمثال، من المقهى الذي كانتا تجلسان عنده، وقالت معلقة:

ـ يبدو وكأنه يحاول وقف المدّ بيده. لكن المد طغى عليه.

بدت ستيلا مشمئزة:

ـ يستحق ما حصل له.. المتوحش الاناني.. لماذا يحتاج إلى قصر بهذا الحجم؟ لا يمكنك إنهاء الجولة فيه في يوم واحد.

قال شخص من طاولة قريبة:

ـ على الأرجح كان يتجول فيه وهو على جواده.

بدأت ستيلا تضحك، وفي عينيها السوداوين بريق يتراقص. نظرت ميلاني إلى الغرباء، ولم يبدُ أحدهم ذو شكل مريب لكنها مسؤولة عن ستيلا وسلامتها. كان الشاب الذي شاركهما التعليق قد أدار كرسيه ضاحكاً، وسأل:

ـ أكنتما في الداخل؟

رفست ستيلا حذائها من قدميها، وأخذت تحرك أصابع قدميها بطريقة مبالغ فيها:

ـ ألا يمكنك أن ترى؟ قد لا أتمكن من السير مجدداً.. بدأت أعتقد

أننا لن نخرج منه أبداً.

قال الشاب:

ـ رأيي أنه مبتذل جداً.

هزت ستيلا رأسها موافقة:

ـ وكل ذلك الذهب!

ـ والغرف الواسعة!

ـ أنها ضخمة جداً.. ما كان الخدم يحتاجون إليه هو مزالج. ألا يمكن أن تتصورهم يتزلجون من غرفة إلى أخرى، يحملون أوعية الحساء؟

وضحكا لبعضهما.. نظرت ميلاني إلى مرافق الشاب الصغير فوجدته يراقبها، كان نحيلاً أنيق الملبس، مع أنه خلع سترته الرمادية وفك زر ياقته. وقد كانت بشرته السمراء محمّرة بفعل حرارة الجو المرتفعة.. وقال مبتسماً:

ـ أرجو أن لا نكون متطفلين.

رغم أنه يتكلم الانكليزية بطلاقة، كانت لكنته كما مظهره تدل على انه فرنسي.. تعلو قسمات وجهه سخرية ساخرة وبريق جذاب في عينيه الداكنتين أضف إلى انه يتمتع بصفات شخص معتاد على العيش في المدن الكبيرة..

ردت ستيلا، بينما كانت ميلاني تفكر كيف ترد بأدب، فهي لا تريد الانخراط بحديث مع غرباء.. ذلك لأن وظيفتها هي أن تتأكد من أن لا تلتقي ستيلا أحداً لا تختاره جدتها بحذر.

ـ أبداً.. من اللطف التحدث إلى الآخرين بنفس لغتك. هل لاحظت أن لا أحد في باريس يتكلم الانكليزية؟

ضحك الرجل:

ـ قد لا يستخدمونها في الإجابة على الغرباء، وهذا نابع من اعتزازنا وتمسكنا بلغتنا الأصلية، رغم انهم يفهمون جيداً ما يقوله الغير لكنهم مصممون على ألا يتركوا الانكليز ينجحون...

سألت ستيلا بحدة:

ـ ينجحون بماذا؟

ـ في السيطرة على العالم بلغتهم.

عبست ستيلا وردت قائلة:

ـ صعب أن أقول إننا نحاول هذا هذه الأيام.

ـ اللغة الانكليزية هي كالطحلب.. تنتشر في أي مكان بسرعة.. ونحن نحاول جاهدين أن ننزع جذورها من لغتنا، لكنها تعود إلى التواجد ثانية في مكان آخر..

مع انه كان يرد على ستيلا، إلا أنه كان ينظر إلى ميلاني، وجهه ممازح، فاضطرت للرد قبل أن تفكر:

ـ وماذا عن الكلمات الفرنسية التي نستعيرها، انها لا تزعجنا، فالانكليزية تستوعب الكلمات بسهولة.. على أي حال نحن نترك المجال للتطور في حياتنا.. فلماذا لا نفعل هذا بلغتنا؟

قال الرجل بجدية:

ـ أستطيع القول إن هذا أمر جيد بالضرورة، والمشكلة في العالم اليوم هي فقدان الهوية.. إذ أن الناس لم يعودوا واثقين من هم، وإلى أين ينتمون. واللغة ليست حقاً وسيلة اتصال.. انها وسيلة لتثبيت هوية.. على أي حال، ماذا نعني حين نقول إن أشخاصاً يتحدثون لغتنا؟ هذا يعني أنهم يشاركوننا الانتماء إلى نفس البلد.

سألت ستيلا:

ـ ألا تشعر بأنك في وطنك معنا؟

ابتسم لها:

ـ أتقيمين في باريس؟

ـ أجل.. وأنت.. أتعيش هنا؟

ـ كم ستدوم إقامتك؟

هزت كتفيها:

www.lilas.com/vb3
Aml

ـ لم نقرر بعد.. أسبوعاً أو أسبوعين، على الارجح.

ـ ثم تعودين إلى وطنك؟ أين تعيشين؟

ـ في لندن.. لكننا سنذهب من هنا إلى إيطاليا.

علق الرجل وهو ينظر إلى ميلاني:

ـ إجازة طويلة.. هل أنتما شقيقتان؟

بدأت ستيلا بالضحك، وقالت بسرعة قبل أن ترد ميلاني:

ـ نحن صديقتان.

كانت عيناها السوداوان تتحديان ميلاني أن تقول العكس، فستيلا حساسة جداً حول الدور الذي تلعبه ميلاني في حياتها. ولا تريد أن يعرف أحد أن عائلتها تظن أن على راشد أن يقتفي أثرها أينما ذهبت.. وقالت مكملة:

ـ أنا ستيلا، وهذه ميلاني.

رد الشاب بسرعة:

ـ أنا رينيه وهذا عمي جان بول. أقيم معه بينما يمضي والداي إجازة في الجزائر.

قال جان بول بعصبية:

ـ وهذا سبب وجودي هنا اليوم لرؤية قصر فرساي.. ليس لدى رينيه أي عمل يقوم به، وواقع أنني مشغول جداً لا يهمه.

عبس رينيه وقال لستيلا:

ـ كل ما يفكر به هو العمل.

ردت:

ـ أعرف هذا الصنف.. مثل والدي...

تابع رينيه موافقاً:

ـ ما إن يبلغوا سن الثلاثين، حتى يسيطر جمع المال على تفكيرهم.

سأله جان بول:

ـ وبماذا تفكر أنت؟ بصرفه؟

سخرت ستيلا:

- هو هو.. هذا ما يعرف عند الكبار بروح النكتة.

نظرت ميلاني بسرعة إلى ساعتها، وشهقت بصوت مرتفع:

- يا إلهي! انظري إلى الساعة!

استعادت ستيلا تلك النظرة العنيدة مرة أخرى:

- وإن يكن؟ لسنا مستعجلين للعودة.

نظر رينيه بأمل إلى ستيلا:

- كيف جئتما إلى هنا؟ نحن جئنا بالسيارة.. فهل نستطيع أن نعيدكما؟

كان ولداً نحيلاً، شعره قصيراً اسود متجعداً، عيناه سوداوين كبيرتين فيهما توسل ولهفة، وبشرته سمراء. ومن الصعب أن لا يعجب المرء به.

ردت ستيلا على الفور:

- جئنا بالتاكسي، وسنحب جداً أن توصلانا في طريق العودة.

قالت ميلاني، تحاول مخالفة ستيلا دون أن تبدو فظة، مبتسمة لجان بول:

- هذا لطف منكما.. لكن لا.. شكراً. من السهل أن نحصل على تاكسي يعيدنا.

ضاقت عيناه تفهماً، وشاهدته يهز كتفيه، بينما لم يقبل رينيه برفضها.. فوقف يقول:

- لا.. لا.. لماذا تزعجان نفسيكما بأخذ تاكسي بينما ستحصلان على توصيلة أكثر راحة معنا؟ السيارة هي في موقف السيارات هناك.

وقفت ستيلا بدورها.. وجاء النادل يعطي الفاتورة لميلاني، فأخذتها تنظر إلى ستيلا المبتعدة بنفاذ صبر.. لكن جان بول أخذها من يدها ودفع الفاتورتين، وهو يبتسم لها مطمئناً:

- ستكونان بأمان تام، أعدك. فأنا لست سائقاً أرعناً والسيارة مريحة جداً.

علا الاحمرار وجهها ومالت لتعتذر:

- أنا واثقة من هذا.. ولطف منك..

فهم التردد في صوتها:

- لست بحاجة للقلق، وتعلمين هذا.. نحن محترمان جداً.. ولا نخطط لخطفكما واحتجازكما في فندق قذر.

بدأت ميلاني تضحك:

- لم أفكر بهذا.

رد بلهجة ارتياب: لا؟

هزت رأسها بحزم:

- لم يخطر هذا ببالي.. الأمر فقط أنني مسؤولة عن ستيلا و..

صمتت، فكيف يمكن أن تشرح بأدب أن عليها أن تكون حذرة من الناس؟ أكمل لها جان بول كلامها بهدوء:

- وترغبين في بعض الضمانات؟ أنا رجل أعمال أملك عدة محلات وفندق صغير في باريس.. والد رينيه شريكي في الفندق.. ونحن أهل للثقة، أؤكد لك.

أثار حذر ميلاني استغرابه وبدا ذلك على ملامح وجهه.. لا شك أن الأمر يبدو مضحكاً له.. لكنها لا تستطيع أن تقول له بصراحة إنها مضطرة للحذر بسبب ستيلا.. ومن الأفضل أن لا يعرف أن والدها غنيّ جداً.. فلباسها، تصرفاتها العفوية والودية، لم تكن تعطي انطباعاً انها ابنة مليونير مدللة وهذا أفضل.

عندما وصلا إلى السيارة وجدا الصغيرين يتجادلان بحدة حول موسيقى «البوب» واستمر جدالهما طوال طريق العودة إلى باريس.. ولم يحاول جان بول أن يشارك في جدال ستيلا ورينيه، بل كان بين حين وآخر، يبتسم لميلاني ويبدي ملاحظة مؤدبة، إذ لا بد أن يكون قد أخذ ترددها في العودة معهما على محمل شخصي، وتركها لأفكارها طوال الطريق.

حين توقفت السيارة أمام المبنى حيث تقيمان رفع رينيه رأسه وصاح:

ـ واو.. ! أنت تقيمين هنا؟

بدت ستيلا حيوية أكثر من عادتها، وهزت رأسها إيجاباً، ثم خرجت من السيارة قائلة:

ـ شكراً للتوصيلة.. إلى اللقاء.

دهشت ميلاني للطريقة العفوية التي انطلقت بها ستيلا، فحدقت فيها، ثم استدارت وهي تبتسم لجان بول بأدب وتقول:

ـ شكراً لك.. سررت بلقائك.

كان وجهه جافاً:

ـ وأنا سعيد بلقائك.

أدار المحرك ثانية وابتعد، فلحقت ميلاني بستيلا إلى باب المصعد، وحين وصل المصعد راقبت ميلاني ستيلا تضغط الزر، وقالت بحذر:

ـ رينيه شاب لطيف.

لم تلتقط ستيلا الطعم، بل هزت كتفيها، ترد بموضوع مختلف تماماً:

ـ أتساءل ما إذا كان سيقدم لنا اللسان المسلوق على العشاء الليلة.. فقد استمتعت به بالأمس.

لم تكن ميلاني تتوهم أبداً.. فمحاولتها الصيد فشلت وبتعمد.. إذ أنه لم يكن جزء من عملها التساؤل عن مشاعر ستيلا الداخلية، وهكذا تركت الأمر. رغم أنها كانت تتوقع منها أن تأخذ وقتاً أطول للوداع، لكن لربما أزعجها رينيه خلال جدالهما الطويل حول الموسيقى. ولا يمكن لأحد أن يعرف ماذا يجري في داخل رأسها الصغير.

كانت السيدة هاڤري تحس بانتعاش هذه الليلة.. وحين انضمتا إليها، سألتهما عن يومهما بطريقة لا مبالية، قبل أن تخبرهما بحماس شديد أنها تلقت مخابرة من زوجها الذي سينضم إليهم في إيطاليا.. كانت ميلاني قد قابلت برنارد هاڤري لوقت قصير. ذلك السيد الذي يبدو

كأحدى قطع النقانق، أحمر ناعم، لكنها أحست أن له قلب طيب. كان ينظر إلى ستيلا وكأنها بركان على وشك الانفجار، لكنه كان يهتم بها في الوقت نفسه.. وأخذت ميلاني فكرة عنه انه رجل لطيف، يود التقرب من ستيلا لكنه لا يعرف من أين يبدأ.. أما رأي ستيلا به فهو مختلف عن رأيه بها قليلاً؛ كانت تتثائب فيما هو يخبرها عن روعة باريس في الصيف، تتنهد محتجة حين يحذرها من التجول بمفردها هناك، ومع ذلك لم يكن يبدُ على وجهها عداء خاص له..

وأكملت السيدة هاڤري:

ـ أنا ذاهبة لتناول العشاء مع أصدقاء هذه الليلة.. لهذا ستتعشيان لوحدكما.

ردت ستيلا باستهزاء:

ـ سنعيش.. امضي في طريقك وامرحي.. جدتي..

سألت ميلاني السيدة:

ـ أرأيت كم تهتم ستيلا لأمرك؟

ابتسمت ستيلا:

ـ أوه.. يا لك من ماكرة!

سألت الجدة مبتسمة وهي تنظر من واحدة إلى أخرى:

ـ اواثقتان أنكما لا تمانعان؟

قالت ستيلا:

ـ كوني حذرة.. ولا تتأخري في العودة.. ولا تتحدثي مع رجال غرباء.

ابتعدت السيدة هاڤري ضاحكة، كانت ستيلا في مزاج جيد جداً هذا المساء.. وشاهدتها ميلاني تضع يدها على جبينها مقطبة، فسألتها بدهشة:

ـ صداع؟

ـ قليلاً.. لا بد أنها الشمس.

ـ كان الطقس حاراً اليوم.

ـ أظن أنه من الأفضل لي أن أخلد للنوم باكراً.. لكن يجب أن أرى اولاً اذا كان هناك لسان مسلوق على العشاء.

ـ ليس بالأمر الصحي أن تتناولي اللحم قبل النوم مباشرة إذا كنت لا تشعرين أنك بخير.

ـ كفى عن لعب دور الممرضة معي.. اللسان المسلوق لا يزعجني، وسأبقى للعشاء.

لكن مدبرة المنزل اعتذرت بحزن.. فقد حضرت طبقاً من الكركند البحري، فتنهدت ستيلا قانعة بتناوله. بعد أن قبلتا السيدة هارڤي، التي خرجت إلى حفل العشاء، تناولتا الطعام بمفردهما، ثم أخذت ستيلا بعض المجلات وصعدت إلى غرفتها. تركتها ميلاني لمدة نصف ساعة، ثم لحقت بها لتتأكد من انها لا تعاني من أكثر من صداع بسيط. فوجدت الضوء منطفىء، وستيلا متقوقعة في فراشها.. أصغت ميلاني لأنفاسها المنتظمة، ثم تسللت إلى الخارج، وأقفلت الباب بهدوء.

بدلت ملابسها، وغسلت شعرها وجففته فيما هي تشاهد فيلم رعب صامت قديم يعرض على التلفزيون، ويعتمد في تأثيراته على الظلال القاتمة وتعابير الرعب على وجه البطلة، ليتملك ميلاني الضحك. حين انتهى الفيلم، أطفأت الجهاز، وكانت على وشك الصعود إلى غرفتها حين انفتح باب غرفة الجلوس فاستدارت مذهولة.

ـ آسف.. هل أخفتك؟

ولأنها كانت قد خففت الانوار خلال مشاهدتها للفيلم فقد فاجأها ذلك الطيف الاسود عند الباب، مما سرّع من نبضات قلبها فإذا بها ترى جوليانوس بيلانوس عند الباب.. وحاولت جاهدة أن تخفي ملامح الذهول عن وجهها.

ثم قالت برباطة جأش:

ـ مساء الخير سيد بيلانوس. لم أكن أعرف أنك قادم.

هل من عادته أن يصل دون أن يتوقعه أحد؟ يوم التقت به أول مرة، أحست أن وصوله المفاجيء كان عادياً منه ومتعمداً.. فهو يحب أن يفاجيء أمه.

رد بخشونة:

ـ لم يكن أحد يتوقع قدومي.. أين أمي؟

ـ خرجت مع بعض أصدقاء للعشاء.. وستيلا نائمة.

وفكرت: من المؤسف أنني لم أذهب إلى الفراش أيضاً.. لكنت تمكنت من تجنب رؤيته حتى الصباح، فأكون أكثر قدرة على التعامل معه.

ارتفع حاجباه بحدة:

ـ في مثل هذه الساعة؟ أهي مريضة؟ أم أنها غاضبة؟

ـ تشعر بصداع خفيف.. ذهبنا إلى فرساي اليوم وسرنا كثيراً وكانت الشمس شديدة الحرارة، فأحست ستيلا بالتعب.

ظهرت في عينيه نظرات خبيثة وسألها:

ـ لكنك لم تتعبي؟ تبدين مرتاحة، هاه!

ـ تمتعت بالزيارة.

شعرت بالقشعريرة تتسلل إلى جسمها فيما كان يحدق بكل شبر من جسمها من فوق ثوب نومها الأسود، وكأنه يرى من خلاله.. ألديه عينين بأشعة أكس؟

ثم عاد ينظر إلى وجهها، وفهم التعابير المرسومة عليه، فالتوى فمه وعلق قائلاً:

ـ مثير جداً.

إنه يتعمد إحراجها، الأمر الذي جعلها تكره تلك النظرات التي كان يرمقها بها، فجفلت وقالت ببرود:

ـ مدبرة المنزل ذهبت للنوم أيضاً.. هل تناولت الطعام؟ هل أحضر لك شيئاً؟

ـ لقد تناولت الطعام.. لكنني أرغب في بعض القهوة.. أتشاركينني؟

ـ لا شكراً. فأنا سأخلد للنوم.

راقبته وهو يضع الابريق الكهربائي في المقبس، قال:

ـ هيا.. تناولي القليل فقط.

ـ لا... شكراً.

نظرت إلى كتفيه العريضتين.. وتأملت سترته التي تلفت الأنظار.. كان يتصرف بديناميكية شديدة حتى دون أن يقوم بأدنى حركة. تلك الطاقة التي يحركها وفق ارادته دون أي تهور... فهو على يقين تام مما يريد وما يفعل... ووجدت ميلاني هذا مخيفاً.

حين استدار إليها كان في يده فنجانين من القهوة السريعة التحضير، مد لها يده بواحد منهما، وفي عينيه سخرية. قالت بنفاذ صبر:

ـ لا أريد القهوة.. شكراً لك.

وضع الفنجان من يده، ثم أخذ الآخر ورفعه إلى شفتيه، ثم نظر إليها وهو يرشف منه القليل.. فاستدارت نحو الباب قائلة:

ـ تصبح على خير سيد بيلانوس.

رد ساخراً:

ـ بالتأكيد لست ذاهبة إلى غرفتك؟ كنت أتوقع منك تلخيصاً لحالة ستيلا.

سألت بدهشة:

ـ الليلة؟

لوّح بأصبعه الطويل:

ـ ليس هناك وقت أفضل من الحاضر.

عادت ميلاني على مضض نحوه، وجلست على الاريكة بينما وقف هو أمامها، وفنجانه في يده يتفحصها وكأنها عيّنة غريبة تحت المجهر.. وسأل:

ـ إذن.. كيف تسير الأمور معها؟

ـ أظننا نتقدم.. لزمها بعض الوقت لتعتاد عليّ، فهي لم تكن تحس

بالإثارة لملازمتي لها طوال اليوم. لكن يبدو أننا تغلبنا على هذا.. ولم يعد لدي شيء أقلق عليه.

جلس إلى جانبها:

ـ جيد.. كم من الوقت تمضي والدتي معها.

ـ معظم الأمسيات.

ـ لكن ليس الأيام؟

ـ خرجنا نتفرج على معالم المدينة مرات عدة، والسيدة هاڤري تتعب بسرعة.

التوى فمه ساخراً: صحيح؟

في طريقة سؤاله شيء غريب.. قطبت ميلاني:

ـ إنها في السبعين.

لماذا تبرر موقف أمه له، بحق السماء؟ فهو يعرفها تماماً.. وبكل تأكيد لا يتوقع من امرأة في مثل سنها أن تخرج لتسير خلف السواح في باريس تتفرج على معالمها وكأنها مراهقة؟

خلع سترة بذلته السوداء الأنيقة ورماها دون اكتراث على ذراع الاريكة.. راقبته يتمدد باسترخاء تام وتعب شديد بادٍ عليه..

ـ يا له من يوم متعب. أنا منهك القوى.

وقفت قائلة:

ـ السفر يتعب.

امتدت يده بسرعة لتمسك معصمها، وقال:

ـ ليس بهذه السرعة.. أتمانعين؟ أحتاج إلى الاسترخاء.. تحدثي إليّ.

كم يحب إملاء الأوامر! نظرت ميلاني إليه متمردة.. وإلى أصابعه الرشيقة تشد على معصمها:

ـ ظننتك متعباً.

ـ فعلاً.. أنا متعب أكثر من أن أستطيع النوم.. ألم تكوني يوماً متعبة

لهذا الحد؟

ـ معظم الأحيان.

ـ وماذا كنت تفعلين؟

ـ أستحم بماء ساخن وأنام.

تراقصت في عينيه نظرات لعوبة مشاغبة وقال:

ـ أمر ممكن! لماذا لا نفعل هذا؟

استغرقها الأمر بعض الوقت قبل أن تتمكن من الرد عليه، لكنها بعد أن استوعبت ما كان يعنيه، ردت بهدوء:

ـ ليس الليلة.. شكراً لك.

ضحكته كانت حقيقية:

ـ لم تهتز شعرة منك! كنت أتساءل ما ستكون ردة فعلك.

ـ ماذا كنت تتوقع؟

ـ لست واثقاً.. لنقُل شعور بالاشمئزاز... ربما بسبب تجاوزي حدود الأدب معك؟ أو حتى صفعة على الوجه.. اجلسي.. أنا لا أعض. أخبريني عن رأيك بقصر «فرساي».

ردت ببساطة:

ـ إنه مدهش.

فك ربطة عنقه ووضعها فوق سترته، ثم فك حزامه وسأل باهتمام:

ـ أخبريني.. ماذا تفعلين عندما تتوقفين عن العمل؟

ـ قلت لك.. أستحم وأنام.

ـ تنامين كقطعة حطب.. كما أعتقد؟

هزت رأسها موافقة فأكمل:

ـ أمر لا يصدق! أحسدك.. نومي سيء جداً.. فأنا مريض بداء الأرق. كيف تتمكنين من النوم؟

ـ عملي متعب.

ـ وكذلك عملي.. مع ذلك لا أستطيع النوم.

بدأ يخلع قميصه، فراقبته بحذر.. إلى أي مدى يخطط أن يخلع ثيابه؟ سألها بنبرة فيها أكثر من حشرية عادية:

ـ وهل تنامين دائماً لوحدك؟

ـ هذا سؤال خصوصي جداً.

ابتسم:

ـ لكن، ما رأيك بالرد عليه؟ أؤكد لك أنه مجرد فضول.. ما هو نمط الحياة العاطفية التي تعيشها ممرضة؟

ـ حياة طبيعية.. الفارق الوحيد هو عدم توفر الوقت لها كباقي الأشخاص..

رماها بابتسامة فيما عيناه السوداوان تحدقان بها من رأسها حتى قدميها، تتوقفان هنا وهناك في طريقهما نزولاً. لقد كان التقييم متعمداً وبكسل..

ـ أنا واثق تماماً أنك تتلقين عروضاً كثيرة... فأنت فتاة جذابة جداً.

ـ شكراً لك.

لم تجد جدوى لتحديقه بها، لكنها لم تتفاجأ حين شعرت به يقترب منها.. ثم أضاف وعيناه تمازحانها:

ـ والآن.. ألديك المزيد من الوقت؟

ردت بهدوء:

ـ لدي الوقت، لكن ليس لدي الميل.

من المفترض أن تشعر بارضاء لغرورها لمغازلته الخفيفة لها، لكنها لسبب ما لم تكن تشعر بالرضى.. فهو متعب ويريد أن يتسلى، وهي امرأة وقد تكون مستعدة.. ولم يكن يستخدم ضغطاً.. بل ترك الاقتراح معلقاً في الهواء بينهما.. لذلك لم تفكر ميلاني بالأمر كثيراً.

أخذ جوليانوس يمرر أصابعه الباردة على جانب خدها.. وقال هامساً:

ـ قد يروق لك هذا.

وصلت أصابعه إلى فمها، ولسبب ما وجدت هذا مثيراً للاضطراب بشكل غريب.. هناك إحساس قوي بأنه يسيطر على نفسه، ويعي تماماً ما يفعل، وهذا يشير إلى معرفته مدى تأثير ذلك على امرأة، ومما زاد في رهبتها منه تلك العينان السوداوان المبتسمتان، والصوت الاجش الدافىء، واللمسة المداعبة لأصابعه إلا انها رفضت ان تدع ذلك يؤثر عليها. فقالت له، بعينين باردتين:

ـ إن ذلك لا يؤثر علي!

ـ آه، حقاً؟

ـ أكنت تظن غير هذا؟ أعرف أنك بحاجة للاسترخاء.. وأنا أرفض أن أكون مهدىء للأعصاب.

ضحك:

ـ أعتذر إن كانت تصرفاتي أوحت لك بذلك.

أمسك ذقنها، وانحنى نحوها بنوايا واضحة.. تراجعت وهي تهز رأسها محاولة إبعاده.

ـ لا.. شكراً لك سيد بيلانوس.. أنا لا أحب هذا العبث، بما أن ذلك لا يعني شيء لأي منا.. فلماذا نزعج أنفسنا؟

تراجع إلى الوراء يهز كتفيه، محاولاً بنجاح إخفاء خيبته.

ـ حسناً.. هل نغيّر الموضوع؟ ما الذي جعلك تمتهنين التمريض؟

ضحكت لهذا التغير المفاجيء. لكنها أجابت مندهشة من نفسها حين وجدت نفسها تخبره عن الحادثة التي قتل فيها والديها.. ووجدته مستمعاً جيداً لأن عيناه كانتا تستوعبانها وهي تتكلم بنظرات ثابتة.. ووجدت نفسها تروي له أموراً لم يسبق لها أن أخبرتها لأحد من قبل، رغم أنها ليست من النوع الذي يثق بالناس بسهولة.

وحين توقفت فجأة قال:

ـ لك صوت ناعم ومهدىء.

بدأت تضحك:

ـ حسناً.. أنا مسرورة أنني قمت بتسليتك.

وقفت:

ـ عليّ أن أخلد للنوم.. تصبح على خير سيد بيلانوس.

ـ يمكنك أن تناديني جول.. تصبحين على خير ميلاني.

لاحظت ميلاني أن النبرة العصبية التي سمعتها في صوته عند أول لقاء لهما لم تكن موجودة الليلة. توجهت نحو الباب، تتساءل إن كانت معجبة به.. وعندما رمقته بنظرة أخيرة وجدته مستلقياً على الأريكة باسترخاء تام وكأنه نائم..

عندما دخلت غرفتها خلعت روبها. أطفأت النور. واستقرت في الفراش متثائبة.

فجأة، انفتح الباب بعنف.. ولمع النور فجأة، فجلست ميلاني في فراشها، مشدوهة، تنظر إليه.

كان من الصعب التصديق أن تلك العينين، اللتان كانتا تبتسمان منذ قليل، تظهران كل هذا الغضب. لقد بدا متوحشاً ذو وجه قاس..

ـ إذن.. ليس هنالك أي متاعب؟ أنت سعيدة جداً بالطريقة التي تتصرف بها ستيلا؟ أقلت إنك تنامين بعمق شديد؟

لم يعطها فرصة لتسأله ما الخطب.. وتابع بصوت غاضب:

ـ يا إلهي، أيتها الغبية. لقد كانت الفتاة تحاول الإيقاع بك في شركها! قلت لك أن تراقبيها كالصقر.. لا يمكن الثقة بها.. حذرتك.. لكنك أدعيت أنك أكثر حكمة مني.. طبعاً.. كنت تبتلعين كل شيء تقدمه لك.. الصنارة والخيط والطعم.. صداع؟

ضحك مجلجلاً بسخرية:

ـ قد يهمك معرفة أن ستيلا ليست في فراشها تعاني الصداع.. حتى أنها ليست في الشقة كلها.. الله وحده يعرف أين هي.. لكنها بكل تأكيد جعلتك تبدين حمقاء!

* * *

٤ ـ العمر الضائع

استوعبت ميلاني ما قاله ببطء، وسألت باستغراب:

ـ ليست في غرفتها؟

زمجر قائلاً:

ـ ألا تفهمين الانكليزية؟

ما الذي جعلها تظن أنه رجل يسيطر على أعصابه؟ لقد انكسر ذلك المظهر الخارجي المتمدن ليظهر مكانه شخص بدائي. . قد يعامل النساء الأخريات ببساطة، لكن فيما يخص نساء عائلته هناك رد فعل عنيف.

قالت له:

ـ هلا انتظرتني في غرفة الجلوس، سأنضم إليك.

ما كان هناك من سبب يجعلها تترك سريرها وهو ينظر إليها لانها كانت ترتدي ثياب نوم اختارتها لها ستيلا، قميص رياضي يصل إلى أعلى من خصرها بقليل، وهي لن تستعرضه أمامه وهو في مزاجه الحالي.

نظر إليها ساخراً، حاجباه السوداوان يلتقيان:

ـ إذا كان هناك شيء لا أطيقه، فهو النساء المتظاهرات بالخجل.

استدار بحركة عصبية وغادر الغرفة مما دل على نفاد صبره.

أجفلت ميلاني لصفقة الباب بشدة، وقامت بسرعة من الفراش وارتدت روبها القطني الطويل الذي يمكن إغلاقه بسحاب من الامام

حين انضمت إلى جوليانوس، كان قد فتح الستائر عن النوافذ الكبيرة، ووقف هناك متأملاً وعلى وجهه نظرة متوحشة. . انتظرت ميلاني تراقبه، ما هي إلا لحظة، حتى استدار وصاح بها:

ـ هل لديك فكرة أين يمكن أن تكون؟

قبل أن تفتح فمها لترد أكمل صائحاً:

ـ الحقيقة. . لو سمحت. . أين هي؟

ها قد فقدت وظيفتي. . لا بد أنه سيضعني على أول طائرة عائدة إلى لندن قبل أن أستطيع أن أتنفس:

ـ ليس لديّ أي فكرة.

ـ لا يمكن أن تكون خرجت لوحدها. . لا بد أن تكون مع شخص ما. ولا بد أنه رجل. . من كانت تقابل؟

ـ لا أحد.

ثم توقفت، فاغرة الفم حين عاد إلى ذاكرتها ذلك الشاب الذي التقتاه في «فرساي». . بالتأكيد لا؟

لاحظ جوليانوس نظرة الدهشة في عينيها:

ـ هل فكرت بشيء؟ بشخص ما؟

ـ التقينا بشاب في «فرساي». . .

قاطعها بنبرة فظة:

ـ أوه. . هكذا إذن! أي شاب؟ أظنني أوضحت لك أنك يجب أن تمنعيها من لقاء أحد إلا اذا كنت موجودة معها؟

ـ كنت موجودة، وبكل تأكيد لم أشجعها.

ـ ما اسمه؟

ـ رينيه.

كانت تعلم ما هو السؤال التالي، وتعرف أن الرد لن يعجبه.

ـ رينيه ماذا؟

ـ لست أدري.

نظر إليها نظرة موبخة:

ـ لا تدرين؟

ابتعد عنها، سأل وهو يدير ظهره:

ـ كيف خرجت دون أن تلاحظي أنت ذلك؟

ـ لست أدري.. ربما وأنا أغسل شعري..

آلمتها نظرته الحادة الساخرة، فأكملت صائحة:

ـ لا يمكنني مراقبتها أربعاً وعشرين ساعة في اليوم.. ماذا تريدني أن أفعل؟ أنام على باب غرفتها؟

تجاهل سؤالها الساخر الحانق، وسأل:

ـ أي نوع من الشبان هو؟

ـ شاب لطيف.. أعجبني، كان لطيفاً وودوداً.

ـ أنا واثق من هذا.. فأنا التقي بالكثير من اللطفاء والمتوددين.. فالمال له هذا التأثير على الناس.

أحست بالانزعاج، فصاحت:

ـ أوه، لا تكن سخيفاً. لم يعرف أن ستيلا لديها مال.. لم تكن تحمل يافطة تقول «تعال وخذني، أنا محشوة بالمال».

لم يبدُ عليه الاقتناع، وقال:

ـ لعلك أدركت الآن سبب عدم ثقتي بها.. تذهب بصحبة شاب بالكاد تعرفه إلى مكان لا يعرفه سوى الله.. ليفعلا ما لا يعلمه كذلك سوى الله.. رغم أن لنا فكرة خبيثة عما قد يفعلان، إذا لم نكن نعرف أين، أليس كذلك؟

نظرت ميلاني إليه بحدة، وعيناها واسعتان باردتان:

ـ أظنك تقفز إلى استنتاجات خاطئة.

رد بعدائية:

ـ أوه.. تظنين هذا؟

ـ أجل.. أظن هذا. ذلك لأن ستيلا في السادسة عشر ومع أنها قد تكون متمردة فأنا لا أرى أنها مراهقة مستهترة.

ـ وماذا تظنين أنها كانت تفعل في تلك الحفلة طوال الليل؟ تلعب الداما؟

ازدادت غضباً.

ـ ترقص على الأرجح.. لماذا لا تتوقف عن رؤية الأمور من زاويتك، وتحاول أن تراها من زاويتها؟ كم من الوقت أمضيته معها في السنوات الأخيرة؟ أستطيع القول إنني اصبحت أعرفها أكثر منك.. وإن لك فكرة خاطئة تماماً عنها. إذا كانت مستهترة قليلاً، فربما هي تتخذك مثالاً لها..

صمتت، تلهث مرتجفة لما قالته.. فسأل بحدة: ماذا؟

أدركت ميلاني انها تجاوزت حدها ويجب أن لا تتراجع فتابعت:

ـ لأن صدى الجنس الآخر يتردد في بيتك.

ـ أنا لست في السادسة عشرة.. ومن تظنين نفسك لتتكلمي معي بهذه الطريقة؟

ـ يقلد الأولاد تصرفات ذويهم في سن معينة. وإذا كانت ستيلا تظن أن العلاقات العابرة بين الجنسين أمر جيد، فهذه غلطتك أنت. أنت تفكر هكذا.. صحيح؟

بدا وقد فقد النطق، ينظر إليها بعينين ضيقتين.. فأكملت ميلاني بهدوء:

ـ أنت لم تلتق برينيه.. أنا إلتقيت به.. ولا أرى أنه يغويها.. لعلهما جالسان الآن في مقهى على الشارع يستمعان إلى موسيقى «البوب» ويتحدثان.. في مثل هذا السن، من المثير جداً مجرد الحديث.. أم أنك لا تذكر هذا؟

نظر إليها مذهولاً، فقالت في نفسها: لا.. لا يذكر هذا أبداً.. ربما لم يعرف يوماً الإحساس بالإثارة التي يحس المرء بها في مراهقته لمجرد الحديث دون انقطاع مع الاصدقاء واكتشاف النفس كراشد لأول مرة، ثم رمقته بنظرة متأملة فإذا بتلك العينان الضيقتان، والقسمات المتجهمة، مع الثقة بالنفس البارزة في عظام الوجه تعكس قساوة ذلك الشخص، وتساءلت ما إذا كان يوماً مراهقاً مضطرباً يبحث عن نفسه.. أم أنه كان

راشداً حتى في المهد؟

ـ أتريدين مني أن أصدق بأنهما يتحدثان فقط؟

ـ وما هو الذي لا يصدق في هذا؟ يبدو لي أنك تجد الرغبة هي نقطة الالتقاء الوحيدة بين رجل وامرأة. . لكنك، ربما، لا تملك روح الفضول.

التوى فمه:

ـ الفضول؟

ـ الفضول في التعرف على الجنس الآخر الذي قد لا يكون جسدياً بالضرورة.

ـ لكنه هكذا عادة. يا إلهي! كم تفكيرك طاهر!

صححت له:

ـ ليس طاهراً. . بل عملي. أنت تدين ستيلا دون أن تسمعها. . ألا يمكنك الانتظار إلى أن تعود وتتركها تقول لك أين كانت وماذا كانت تفعل؟

ـ وهل من المفترض أن أصدق أية قصة مختلقة قد ترويها؟

ـ يجب أن تقرر هذا بنفسك، بعد أن تسمعها.

مع كل هذا كانت تبدو تصرفاته غريبة. . فأضافت:

ـ أنت تتصرف بقلق مبالغ فيه نحوها. . معظم الفتيات في مثل سنها يخرجن مع شبان، فماذا تتوقع؟ لا يمكنك إبقاؤها مربوطة إلى طوق إلى أن تبلغ السن القانونية.

ـ هذه فكرة سديدة. . .

خفت الحدة في نبرة صوته وبدت بعض السلاسة على ملامح وجهه المتجهم. . ظل يتحرك بقلق، ويداه في جيبيه مطأطىء الرأس. راقبته ميلاني يسير نحو النافذة ثم يعود، بحركة تشبه حركة السجين في زنزانة ضيقة. . ثم توقف، واستدار نحوها:

ـ أنا لست معتاداً على الكلام مع الناس عن حياتي الخاصة. . لكن

أترين. . .

لكن صوتاً ما قاطعه، فسكت ونظر إلى الباب، فجفل لرؤيته السيدة هاثري في المدخل، محمّرة الوجه مبتسمة. . مشلح من الفرو الابيض والفضي يلتف حول كتفيها، وحقيبة سهرة فضية تلمع في يدها.

اختفت ابتسامتها وبدت ملامح الذعر في وجهها:

ـ جول. .

عادت تلك النظرة الباردة الى وجهه. . ونظر إلى الساعة المرصعة بالأحجار الكريمة الخضراء الموضوعة على الطاولة قربه:

ـ متأكدة. . هاه؟

كادت أنفاس ميلاني تنقطع. . لم يعد لديها أدنى شك بأن تصرفاته فائقة الغرابة. . من المؤكد أنه لا يظن أن أمه كانت تعبث كذلك!

ردت الأم:

ـ صحيح؟ أوه يا عزيزي. لم ألاحظ الوقت. متى وصلت إلى هنا جول؟ لو عرفت أنك قادم لما خرجت.

رد ساخراً:

ـ أنا واثق أنك ما كنت خرجت.

نزعت السيدة هاثري مشلحها، ولاحظت ميلاني بقلق أن يديها كانتا ترتجفان. . وسألها:

ـ أين كنت حتى هذه الساعة؟

راقب والدته وهي تضع مشلحها وحقيبة يدها، ثم تعبث بشعرها بتوتر. .

فكرت ميلاني: لماذا لا تقول له أن يغرب عن وجهها؟ لماذا تتحمل منه كل ذلك؟ إنها في السبعين من عمرها وهو يكلمها وكأنها في السابعة عشرة. . لماذا؟

ـ تناولت العشاء مع أصدقاء.

ـ مع أصدقاء أم مع صديق؟

كم هو بغيض . . ! إنه يشعر ميلاني بالقشعريرة . ما الذي يفعله بأمه؟
نظرت إليه السيدة هاثري، والدموع تتراقص في عينيها السوداوين، وقالت بوقار .
ـ أظنني سأخلد للنوم .
صاح بها فجأة :
ـ يبدو أن ستيلا هربت مجدداً .
شهقت من المفاجأة، ثم نظرت إلى ميلاني وسألت :
ـ ما الذي حدث؟
ردت ميلاني بلطف :
ـ لا نعرف بعد . أظن انها خرجت لمقابلة شاب التقيناه في فرساي . . لكنني واثقة أنها بخير . . إنه شاب لطيف، وستكون بخير معه .
ضحك جوليانوس ساخراً :
ـ تعيشين في عالم الاحلام!
تجاهلته ميلاني وقالت للسيدة :
ـ لا تقلقي .
ـ لكنني لست أفهم . . لماذا تركتها تخرج؟
شرحت لها ميلاني كل الظروف، وأصغت العجوز لها بوجه متجهم متألم، ويدها على عنقها تمسك بعقدها المرصع بالماس والذي يزيد بريقه من شحوب وجهها .
وأنهت ميلاني كلامها : لكن، لا يجب أن تقلقي .
فابتسم جوليانوس ساخراً مرة أخرى، وقال :
ـ لا . . لا تقلقي، ماما، لا نريدك أن تقلقي .
نظرت السيدة هاثري إلى ميلاني متوسلة :
ـ هل اتصلتم بالشرطة؟
ـ لم يتأخر الوقت إلى هذه الدرجة بعد . . ستعود قريباً .
صاح جوليانوس :

ـ إنها في السادسة عشرة من عمرها . والأرجح أن تكون جثتها عائمة في نهر السين!
تأوهت السيدة هاثري، وترنحت . . فسارعت ميلاني لتضمها إليها وهي تنظر إلى جوليانوس قائلة بحنق :
ـ لا تكن مأساوياً هكذا!
ـ يبدو لي أنك تأخذين الأمر كله ببساطة .
ـ شخص ما يجب أن يفعل هذا . . إنك تختلق مشكلة كبيرة من الأمر . صحيح أنه من المقلق أن تخرج ستيلا دون أن تخبرنا إلى أين أو مع من . . لكنك تتجه إلى أقصى التطرف، وتتصور الاسوأ، قبل أن تعرف ما حدث فعلاً .
رد ببرودة، وعيناه على أمه :
ـ لدي أسباب كافية لأن أعرف نوع الدم الذي يجري في عروقها .
ارتجفت السيدة هاثري، وأحست ميلاني بالحركة وهي تسندها لتقف، فازداد عبوسها . . ما معنى كل هذا؟ هناك الكثير لا يقال، لكن الابن والأم يفهمانه جيداً!
سمعوا صوت إقفال باب الشقة . . فخرج جوليانوس من الغرفة كالبرق، ثم علا صراخه مستخدماً كلمات يونانية قاسية ورنانة .
همست السيدة هاثري :
ـ لا تدعيه يقول لها كلمات كهذه .
ودفعتها بلطف إلى الخارج . . بينما استلقت العجوز على الاريكة، خرجت ميلاني إلى الردهة لترى ستيلا في بلوزة دون اكمام وبنطلون جينز، تواجه والدها متحدية وشفتها السفلى متدلية إلى الامام في استياء دون أن تتفوه بأية كلمة . كانت كلماته تجعل ستيلا غاضبة جداً . . لتنفجر قائلة :
ـ أكرهك!
ثم ركضت نحو غرفتها .
ولحق والدها بها، لكنها صفقت الباب وأقفلته بالمفتاح . فتوقف

عنده، ثم استدار على عقبيه واختفى في غرفة اخرى، يصفق بابها بدوره.

عادت ميلاني ببطء إلى السيدة هاثري التي كانت تنظر إلى لا شيء وترتجف. فجلست قربها وراحت تفرك يديها اللتين كانتا ببرودة الثلج. ثم قالت بقلق:

ـ إنها غلطتي.

ـ بالطبع لا.. لا يجب أن تفكري هكذا، كيف يمكن أن تكون غلطتك؟

قلقت ميلاني عليها لأنها كانت شاحبة جداً وباردة.. والصدمة قد تكون قوية على من هم في مثل سنها.

ـ أوه.. إنها غلطتي، عزيزتي، أنت لا تعرفين شيئاً.

مررت يدها المرتجفة على وجهها وتنهدت:

ـ أترين.. أنا لم أحب والده يوماً.. حتى أنه لم يعجبني.. كان زواجاً مدبراً، وأجبرتني عائلتي على الزواج منه.. كان يجب أن أرفض، لكنني كنت ضعيفة جداً، على ما أعتقد.. كان ثرياً جداً، والجميع كان متحمساً لذلك.. فاستسلمت، لكن الزواج لم ينجح. لم يكن رجلاً يمكن أن يُحب فقد كان يخيفني.

نظرت إلى ميلاني باكتئاب:

ـ ثم حملت.. وحين أجريت الفحوصات، اكتشف الأطباء أن دمي لا يتمازج مع دم زوجي.

عبست ميلاني:

ـ يا إلهي.. يا لسوء حظك.

التوى فم السيدة هاثري بابتسامة مريرة.

ـ بدا لي يومها رائعاً.. فقد أجهضت الطفل، وقيل لي إن هذا سيحدث دوماً. لكن زوجي لم يصدق هذا.. وجعلني أحاول مجدداً، وحملت مجدداً، ليحصل ما حصل سابقاً.. يا عزيزتي.. كم كنت يائسة

وتعيسة. واستمر هذا لسنوات.. وتقبل حقيقة أنني لن أستطيع حمل الاطفال، كانت سنوات رهيبة.

فكرت ميلاني باللوحة في مكتب جوليانوس، الوجه البارد القاسي والعينين الفاترتين.. فهل هناك شبه أكثر من الظاهر بين الأب والابن؟

ـ لكنك حملت بجوليانوس أخيراً.

نظرت السيدة هاثري إليها بصمت، عيناها ممتلئتان بالتعاسة حتى الاعماق، مما جعل ميلاني تتألم اشفاقاً.

ـ أوه.. أجل.. حملت به أخيراً. حتى أنني لم أكن أرغب به ساعتها. أظن أن الطفل يشعر باحساس والديه. كنت في حالة من الاحباط والاكتئاب العميقين حين وُلد، ولم أطق رؤيته لأشهر.

تنهدت السيدة هاثري:

ـ ثم.. تغيّر كل شيء.. قابلت شخصاً آخر.. في الواقع كنت أعرفه منذ سنوات.. لكن، وبشكل غريب، تطورت الأمور بسرعة. كان أفضل صديق لزوجي، ويعمل معه. كنت أعلم أن زوجي قد يجن غضباً. ولم أكن أريد أن أفقد جوليانوس.. كنت قد نسيت وقتها أنني لم أكن أرغب به، وأحببته بشدة... كان عمره ثماني سنوات فقط. وعرفت كيف ستكون ردة فعل زوجي.. سيأخذه مني ولن أراه ثانية.. وكان موقفاً لا يحتمل.

قطبت ميلاني:

ـ لا بد أنه كان هكذا.

ـ انفجر كل شيء ذات مساء.. كنت وديمتري مضطرين للقاء بعضنا من وقت إلى آخر. وعرف زوجي بالأمر. وحدثت فضيحة رهيبة، وضربني، فضربه ديمتري، بعدها هربت مع ديمتري، وبعد أسبوع تعرض زوجي لنوبة قلبية.. فكتب وصية يترك فيها رعاية جوليانوس لعمه، شقيق أبيه.. ثم مات زوجي ولم يسمحوا لي برؤية جوليانوس.. وتزوجت ديمتري، لكنني لم أتوقف عن محاولة رؤية ابني.. لأنني كنت أعلم أنهم

يسممون أفكاره ضدي . . . لكن دون جدوى . .

نظرت إلى ميلاني وعيناها مغرورقتان بالدموع .

ـ لا أستطيع أن أصف لك كيف كنت أشعر حيال هذا الأمر .

ـ هل كنت سعيدة مع زوجك الثاني؟

ابتسمت السيدة هاثري :

ـ جداً . . ولولا جول، لكانت حياتي جنة . . لكن ديمتري كان أكبر مني سناً . . ومات بعد عشر سنوات، وعدت وحيدة مرة أخرى . . كان جول قد بلغ سن الرشد يومها، لكن حين كتبت له تجاهلني . وأظنه ما كان ليراني ثانية لولا أنه تزوج ڤيكي . . أترين، كانت ڤيكي ابنتي بالعرابة . . أمها ابنة عم لي، وهي التي أقنعت جول بلقائي .

وتملك ميلاني فضول غريب حول زوجة جول الميتة :

ـ هكذا إذن . . كيف كانت؟

ابتسمت السيدة هاثري :

ـ جميلة . . جميلة جداً، فتاة نشيطة قوية لها عينين بنيتين . . كان جول يحبها كثيراً، وكذلك الأمر بالنسبة إليها . لكنه كان دائم الانشغال، كوالده تماماً . . وكان يتركها لوحدها كثيراً .

أحست ميلاني ببرودة شديدة تتملك جسدها، وأحست أنها تعرف ما سيأتي، وأكملت السيدة، وكأنها تحدث نفسها .

ـ لم يكن الأمر يعني شيئاً . . أنا واثقة . . رغم شعورها بالضجر إلا أنها كانت تحب جول كثيراً .

ـ وهل تورطت مع شخص آخر؟

تنهدت السيدة هاثري :

ـ لست واثقة تماماً من الذي حدث . لم يخبرني جول الكثير . . فقد كان هناك كلام كثير في ذلك الوقت، كانت ڤيكي تخرج دائماً مع رجل آخر، وترافقه إلى الحفلات، والعشاء . وحين سمعت الشائعات قلقت وحدثتها بصراحة، فضحكت، فأحسست وكأنها تحاول أن تثير غيرة جول

ليس أكثر .

قالت في نفسها يا للفتاة المسكينة! أنا واثقة أنها نجحت في ذلك .

لكن يا لغباء محاولتها لجذبه إليها!

ابتسمت السيدة هاثري بكآبة :

ـ ضرب جول رأسه بالسقف، كما أظن، لشدة غضبه .

استطاعت ميلاني تصور التعابير المتوحشة في تلك العينين السوداوين .

وأكملت السيدة :

ـ وبعد أن تركته ڤيكي أخذت ستيلا معها . . ثم قتلت بعد ستة أشهر . ووصل جول ذات ليلة ومعه ستيلا طالباً مني الاعتناء بها، فهو لم يكن يريدها معه . . مدعياً عدم توفر الوقت .

تمتمت ميلاني بعبوس :

ـ رائع!

ـ كان يستشيط غيظاً، ولم يكن يرغب برؤيتها . . . جول رجل قاسٍ، مثل أبيه، وكانت ستيلا تذكره بما مضى، وهو لم يكن يريد أن يتذكر .

ـ لا يمكنه لوم ستيلا على ما حدث .

نظرت السيدة إليها ببؤس :

ـ لا أظنه يلومها . لكنها ابنة أمها . . وكان لجول رأي وضيع بالنساء .

ـ ليس هذا بالأمر الغريب كما أعتقد .

تنهدت السيدة مرة أخرى :

ـ لا . . لقد كان صغيراً جداً حين تركت أباه . . وعندما تحطم زواجه، ثبتت لديه فكرة ألاّ يثق بالنساء .

ـ هل ناقشت الأمر معه؟ هل قلت له ما تقولينه لي؟

ـ حاولت، لكنه كان دائماً يرفض الاصغاء . . يقول إنه لا يريد أن يعرف . . وهو رهيب حين يكون مزاجه هكذا . . تماماً كما كان والده وبالاسلوب ذاته .

نظرت السيدة إلى إحدى الساعات المعلقة حولها:

- أوه عزيزتي.. إنها الثالثة صباحاً! لقد أبقيتك دون نوم حتى الآن، وأنت تستمعين إليّ.. أعتذر فعلاً!

ابتسمت ميلاني:

- لا تعتذري.. أرجو أن يكون كلامك قد أراحك قليلاً.

حين وقفت بعد عناء قالت:

- لقد ساعدني كثيراً عزيزتي. وشكراً لإصغائك بكل عطف، وآسفة لاضجارك بمشاكلي.

أكدت لها ميلاني، وهما تخرجان من الغرفة.

- لم يكن الأمر مضجراً.. تصبحين على خير.

همست السيدة هاثري وهي تتجه إلى غرفتها:

- تصبحين على خير ميلاني، وأشكرك على رحابة صدرك.

بعد أن دخلت غرفتها، خلعت ميلاني الروب المنزلي، وجلست على السرير، تحيط وجهها بكفيّها وإحدى ساقيها تعلو الأخرى قائلة في نفسها: يا لها من ورطة! لو كان لديها فكرة عن هذه الامور لما فكرت أبداً في التورط معهم، اعتقدت أن تمرد ستيلا مرده إلى حالة مراهقة طبيعية، ومما يزيدها تعقيداً، عدم اكتراث أبيها بها لكنها الآن ترى الأمور بشكل مختلف تماماً.. وإلى حد ما كان جوليانوس مصيباً في كلامه عن الدم الذي يجري في عروق ابنته.. وإذا فكرت بالأمر من ناحية أخرى، قد تتساءل عن فرص حياة سعيدة طبيعية لستيلا مع مثل هذه الخلفية العاطفية المتشوشة؟

لا يمكن للمرء أن يخلع نفسه من جذوره.. حتى ولو لم يكن يعي وجودها. كم تعرف ستيلا من كل هذا؟ كم خمّنت؟ وما تأثير ما تعرفه عليها؟

اطفأت النور، واستعدت لتنام، لانها مرهقة جسدياً، حين نامت أخيراً، نامت بعمق جعلها تستيقظ متأخرة، جسمها متوتر، غير قادرة على

التفكير، تشعر بحرارة في داخلها. إضافة إلى أن رأسها كان يؤلمها وتشعر باحباط.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حين تركت غرفتها.. لتجد جوليانوس بمفرده، يأكل الكرواسون، ويشرب القهوة، ويقرأ الصحيفة.. رفع نظره إليها وهز رأسه باقتضاب. فقالت وهي تجلس إلى كرسي قريب.

- صباح الخير.

تحققت من سخونة القهوة، وصبت لنفسها فنجاناً.. أين هما السيدة هاثري وستيلا؟ ألا زالتا في الفراش؟ لم تجرؤ على السؤال.. فلتبقيا نائمتين.. وأخذت قطعة كرواسون.

بقي الصمت معلقاً بكل ثقله في الغرفة.. مما جعلها تتوتر. ورغم أنها لم تكن ترى جوليانوس، إلا أنها كانت تحس به مكتئباً وراء صحيفته.. انه رجل لا يبعث الارتياح في النفس.

كان الكرواسون لا يزال ساخناً، هش ومليء بالزبدة. كان صباحاً جميلاً؛ السماء زرقاء وأغصان الأشجار تتراقص مع هبوب نسيم الصيف العليل.. إنه يوم مثالي لركوب الخيل في الغابة، والشمس تتسلل عبر الاوراق الخضراء، لتوزع نورها في نقاط مختلفة من المكان.

فجأة سمعت جوليانوس يقول: يجب أن نتكلم حين تنهين فطورك.

قفزت مجفلة.. لقد آن الأوان إذن.. إنها على وشك أن تطرد.. انها أول مرة تمر بمثل هذه التجربة، ولم تكن تواقة إليها أبداً.. إنها تتمتع برحلتها في باريس.. تحب ستيلا وتحب السيدة هاثري.. لكنها لا تحب جوليانوس بيلانوس.. فمعرفة خلفية عائلته المعقدة، قد يجعلها تفهمه أكثر، لكن تصرفه مع ابنته جعلها تنفر لأن ستيلا تستحق معاملة أفضل من التي يعاملها بها.

طوى صحيفته، ونظر إليها.. فمسحت ميلاني أصابعها بمنديل المائدة وهو يراقبها، مما جعلها تتوتر.

قال دون إضاعة المزيد من الوقت:

ـ لقد فكرت بالأمر ملياً.. الآن وقد رأيت ما يمكن لستيلا أن تفعله، لنرجو ألا تكوني مهملة بعد الآن.

ردت ساخطة:

ـ لم أكن مهملة.

ـ أفهم وجهة نظرك إنك غير قادرة على مراقبتها أربع وعشرين ساعة في اليوم.. لكن حاولي أن تتوقعي مثل هذه الأعمال منها.. وجدي كل شيء عن... رينيه هذا، فقد رفضت أن تخبرني عنه حين سألتها.

تمتمت ساخرة:

ـ يا للعجب!

نظر إليها بحدة:

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ وماذا كنت تتوقع؟ بعد أن قفزت تمسك بخناقها لحظة دخلت من الباب.

ـ أنا واثق من أنك لن تتصرفي مثلي.. فهي ليست ابنتك.

ـ أنت فقط.. لا تعرف كيف تتعامل معها.

نظر ساخراً إليها وابتسم ببرود:

ـ وأنت.. تعرفين؟

ـ لا يمكن أن أكون أسوأ منك.

تراجع إلى الوراء، ينظر إليها مفكراً فيما قال:

ـ لك رأي رفيع جداً بنفسك.. أليس كذلك؟

ابتسمت:

ـ ليس بالضرورة.

ـ ورأي وضيع بي؟

كم يبدو مختلفاً تماماً حين يبتسم هكذا، وكأنه رجل آخر.. ليلة أمس التقت الرجل المحنك الساحر، القادر على الاصغاء والكلام معاً

بشكل بارع، والقادر على العبث دون ابتذال.. لكن، كان هناك جانب آخر منه، الجانب المتوحش، الذي برز فيما بعد.. فأيهما جوليانوس الحقيقي؟ وهل أحدهما قناع لإخفاء الآخر؟ قالت له:

ـ أظن أن أمامك الكثير لتتعلمه.

فأطلق ضحكة رنانة وفي عينيه بريق عابث:

ـ يا إلهي! حقاً؟

ـ فيما يتعلق بابنتك.

تلاشت الابتسامة ولم يعد وجهه ساخراً:

ـ ستيلا انثى.

ـ تجعل هذا أمراً مروعاً، لا يجب أن تحكم على كل بنات جنسنا لمجرد أنه كان لك تجربة مؤلمة.

وقف قائلاً بحدة:

ـ وما الذي تعرفينه عن تجربتي؟

ـ إنني انثى.

نظر إليها بسخرية:

ـ سأحتاج إلى دليل على هذا.

سار نحو الباب، وقال من فوق كتفه:

ـ لا تفقدي ستيلا مرة أخرى.. ففي المرة القادمة لن أكون مستعداً للنسيان بسرعة.

* * *

٥ ـ ما وراء الجدار

كان التجهم جلياً على وجه ستيلا حين رأتها ميلاني فيما بعد ذلك الصباح بعد أن انتهت من تناول فطورها. . مما لا شك فيه، أنها كانت مضطربة جداً بعد ذلك الشجار مع والدها. . وعلى الأرجح بقيت مستلقية صاحية في حالة توتر.

قد تكون ستيلا صعبة المراس ومشاكسة، لكنها حساسة ويمكن أن تُجرح بسهولة، خاصة من أبيها. ذلك لأن مشاعرها نحو جوليانوس مزيج من الحب والكراهية. . معظم المراهقين يمرون في مرحلة تمرد. وفي حالة ستيلا هذه المرحلة خطيرة.

حين دخلت ستيلا الغرفة، أدهش ميلاني أن تراها قد اختارت واحداً من ملابسها الأكثر استفزازاً. . وكانت ستيلا تفعل ذلك حين ترغب في تحدي الآخرين وإغاظتهم. لذلك ارتدت بلوزة برتقالية حريرية عارية الكتفين، تكشف نصف صدرها. . وبنطالاً أخضراً فضفاضاً. لكن ميلاني لم تعطِ دليلاً على ما أدركته من نوايا في نفس ستيلا لأنها تعرف أن عينا ستيلا المنحرفتان تراقبانها لترى دليلاً واحداً على أنها نجحت في هدفها.

لسوء الحظ، لم تكن السيدة هاڤري مهيأة لخوض نقاش مع حفيدتها حول ثيابها. نظرت إلى تضارب ألوان ثياب ستيلا واتسعت عيناها رعباً، ثم قالت:

ـ صباح الخير عزيزتي.

أشاحت بوجهها عن المنظر المؤذي بسرعة. فتقدمت ستيلا لتلامس

بشفتيها خد جدتها، قبل أن تلتفت إلى ميلاني متحدية إياها وتسألها بوقاحة:

ـ أتعجبك بلوزتي؟

ـ مذهلة.

نظرت ستيلا إليها بعينين لامعتين. . فأضافت ميلاني:

ـ بكل تأكيد لا تنوين أن تختبئي من الناس.

ـ أتكرهين ملابسي؟

ـ وهل قلت هذا؟

ـ أتظنينها رهيبة؟

نظرت إليها مبتسمة:

ـ أنا؟ تبدين رائعة. . حسناً. . تابعي، لم تقولي يوماً إن لك قدرة على قراءة الأفكار.

صاحت ستيلا غاضبة:

ـ آه. . أيتها اللعينة.

بدا الذهول على السيدة هاڤري، وقالت:

ـ ستيلا عزيزتي! لم يكن هذا مهذباً.

صاحت ستيلا، وهي تخرج من الغرفة:

ـ حسناً. . يا لكما أنت ومن يُدعى أبي من مهرجين بارعين!

رفعت السيدة هاڤري يديها في الهواء وبدت عاجزة:

ـ إنها جدُّ منزعجة!

ـ سأتحدث إليها.

لحقت ميلاني بستيلا إلى خارج الغرفة بابتسامة مطمئنة للسيدة هاڤري، ووجدت ستيلا في غرفتها بثيابها الداخلية فقط. أما البلوزة البرتقالية، والبنطال الأخضر، فوجدتهما مرميان على الأرض. وقد بدا واضحاً أن ستيلا كانت تدوسهما لتوها.

استدارت ستيلا بحدة تسأل ويديها تتوسطان خصرها النحيل:

ـ ألا يمكن لك أن تطرقي الباب قبل أن تدخلي؟
ـ ألم أطرق الباب؟ آسفة . . ظننت نفسي فعلت .
ميلاني متأكدة من أنها طرقت الباب، وكذلك ستيلا . لا بد أن هذا اليوم سيكون واحداً من تلك الأيام العصيبة . قالت ستيلا بحدة :
ـ أجئت تساعديني في انتقاء شيء مناسب أكثر؟
ثم اختارت فستاناً مصنوعاً من قماش عسكري، أحست ميلاني أنه يناسب مزاج ستيلا الحالي لأن بريق عينيها يحذّر بأنها معلنة الحرب على مختلف الجهات .
جلست ميلاني على حافة السرير :
ـ توقفي عن التصرف وكأنك اليتيمة المسكينة التي لا يفهمها أحد، واصغي إليّ . .
دَست الفستان فوق رأسها، واختفت في طياته تقول :
ـ ولماذا أصغي إليك؟
حين انتهت من ارتداء الفستان أضافت :
ـ سمعت كيف تحدث معي . . والكلمات القذرة التي قالها . . فما قولك بهذا؟
ـ لم أفهم منها ولا حتى كلمة، لأنه كان يتحدث باليونانية . .
أتذكرين؟
ـ إذن دعيني أترجمها لك . . لقد نعتني . .
قاطعتها بحدة :
ـ لا تقولي شيئاً!
ـ هو من استخدم الكلمات . . وليس أنا!
ـ ربما فعل، لكن هذا لا يعني أن تكرريها .
ـ أوه . . من المفترض أن أتقبلها ولا أقول شيئاً، أليس كذلك؟
ـ لا . . من المفترض أن تنتظري حتى يعود إلى أبيك صوابه ليصغي إليك فتخبريه الحقيقة بكل تفاصيلها .

وقفت ستيلا تنظر إليها بحدة :
ـ أنت لا تصدقين هذا!
قالت ميلاني مبتسمة :
ـ اصنعي لي معروفاً . .
تراخت ملامح التوتر على وجه الصغيرة وقالت :
ـ ظننت . .
ـ حتى لو كنت مستعدة لتصديق هذا عنك، أنا لا أفعل بالطبع . ما عليّ سوى أن أنظر إلى رينيه لأعرف أنه ليس من النوع الذي قد يطلب منك مشاركته الفراش منذ أول لقاء لكما .
ضحكت ستيلا :
ـ أوه . . لا . . لن يفعل .
ابتسمت ميلاني لها :
ـ ربما في اللقاء الثاني؟
تظاهرت ستيلا بالتفكير :
ـ أتظنين هذا؟ لا أستطيع الانتظار لأعرف . أتودين معرفة ما فعلناه حقاً؟
ـ أذهبتما إلى حفلة راقصة؟
ـ تناولنا العشاء في مقهى في الحي اللاتيني، حيث يلعبون الشطرنج . . إنه ماهر في الشطرنج . بعد أن أكلنا بدأنا باللعب وهزمني ثم لعب مع شبان آخرين وجلست إلى جانبه أتفرج . . وقد استمرت مباراة واحدة ساعة ونصف .
ـ إنه محترف . . ألم تضجري؟
ترددت ثم ضحكت :
ـ شعرت قليلاً بالملل، لكن رينيه أحب ذلك . . و . .
ـ أعجبك رينيه؟
ابتسمت ستيلا بحرارة :

ـ أو لم يعجبك؟

ـ بدا لي لطيفاً وذكياً. . لكنني لم أتصور أن يكون محترفاً في الشطرنج.

ابتسمت ستيلا مجدداً، ثم نظرت إلى ميلاني باعتذار.

ـ آسفة لتسللي هكذا. . أعني، أرجو أن لا يكون هذا قد تسبب لك بمتاعب مع أبي؟ كان غاضباً جداً، وأظنه ثار في وجهك حين لم يجدني في المنزل. . لقد ارتعبت جداً حين شاهدته هنا.

ـ أنا واثقة من هذا.

ـ كنت أعلم أنك لن تسمحي لي بالخروج مع رينيه.

ـ لكنك مخطئة.

ـ صحيح؟ ألن تمانعي بذلك؟

بدا الذهول على ستيلا، غير مصدقة. . وقالت ميلاني:

ـ كان يمكن أن نرتب الأمر. . لو حاولت إقناعي بالطريقة المناسبة.

سألت ستيلا بارتياب:

ـ وأية طريقة هي تلك؟ لم تبدُ عليك ملامح القبول حين التقينا.

ـ هذا لأنني مسؤولة عنك، وقطعت وعداً بألاّ تقابلي أي كان، أو أن تفعلي شيئاً لا يحبه والدك.

ـ إذن؟

ـ إذن. . الطريقة الصحيحة هي كانت أن تخبري جدتك كل شيء عن رينيه، وأن تطلبي منها الإذن أن يأتي لتناول الشاي أو القهوة معنا كي نتعرف إليه. . لتتمكن حينئذ من أن تكتشف بنفسها ما إذا كان مناسباً أم لا، وهذا ما أنا واثقة منه، ولتمكنت أنت من معالجة الأمر من هذه النقطة.

ـ ماذا لو لم يعجبها؟ أنا أراهن أنه لن يعجبها.

ـ إذا فكرت هكذا يكون عندئذ ليس لك ثقة بحكم جدتك أو جاذبية رينيه.

ضحكت ستيلا:

ـ أتعلمين. . أنت ذكية جداً، لك طريقة في وضع الأمور بحيث تتمكنين من تجنب أي جدال قد أفكر به. أنت ماكرة. .

أدركت أن كلام ستيلا هو من باب الإطراء. وأكملت ستيلا:

ـ في أي وقت أكون قد استعديت لضربك، تجعلينني أضحك. هذا ليس عدلاً!

ـ إنه عالم غير منصف.

وتنهدت، فضحكت ستيلا ثانية:

ـ ها قد عدت لهذا مجدداً!

نظرت ستيلا إلى ميلاني مفكرة:

ـ أتظنين أنني قادرة على البدء مجدداً؟ أعني مع رينيه؟ لو قمت بدعوته لزيارتنا، أتظنين أنهما سيطردانه؟

فكرت ميلاني قليلاً:

ـ قد يشعر والدك برغبة بهذا. . لكن، قد نتمكن من إقناعه.

ـ كيف؟

ـ سأدعوه أنا.

ـ أوه. . حقاً؟ متى؟ اليوم؟ لدي رقم هاتفه. . لا. . رقم هاتف عمه.

توجهت مسرعة إلى طاولة زينتها، بحثت عن رقم الهاتف وكتبته على ورقة ثم قالت: تفضلي.

أخذتها ميلاني:

ـ دعي الأمر لي. . ما اسم عائلته؟

ـ تريكارد. . تهجئتها هكذا. .

كررت تهجئتها ببطء فهزت ستيلا رأسها.

ـ هذا صحيح.

ـ أنت صديقة مخلصة.

ـ شكراً لك.

ـ وأنا آسفة، لم أفكر كثيراً بالأمر من وجهة نظرك. . أعني حين

خرجت خلسة.

ـ أعرف.

ـ أنا معتادة على أن أكون على عداء مع عائلتي.

ورغم كونه تصريحاً مشوشاً، إلا أن ميلاني فهمته وقالت:

ـ تذكري في المستقبل أنني لست من معسكر الأعداء.

ابتسمت ستيلا:

ـ أنت في معسكري إذن.. عظيم!

أرادت ميلاني أن تصحح لها ما قالته، وتقنعها بأنها لا ترى ضرورة لوجود معسكرات.. لكن ستيلا كانت سعيدة مرحة، فقررت ميلاني ترك الموضوع كما هو حالياً.. فإذا تمكنت من تلطيف الأجواء بين ستيلا وأبيها، ستتمكن حينئذ من أن تفهم ستيلا بأنه لا يجب أن تكون الحياة معركة.. بالضرورة.

عادت ميلاني إلى غرفة الجلوس، لتجد السيدة هاڤري لوحدها، تنظر ببؤس إلى سماء باريس الزرقاء عبر نافذة الغرفة.. فتوجهت نحوها، ونظرت السيدة إليها وسألت:

ـ كيف حالها؟

ابتسمت:

ـ بخير.. سيدة هاڤري.. أريد أن أخاطر بشيء.

ـ أوه..؟

ـ أريد دعوة رينيه وعمه إلى هنا لشرب القهوة هذا المساء.

صاحت السيدة بذهول:

ـ أوه!

ـ أظن أن الأجواء ستكون أوضح كثيراً لو قابلتموهما أنت وابنك.

ـ يا عزيزتي! تودين القيام بذلك حقاً؟

ـ على الأقل، سيفهم السيد بيلانوس أن رينيه مراهق لطيف، وليس وحشاً.

لم تبدُ السيدة راضية لهذه الفكرة.. وقالت:

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن نترك الأمور كما هي.

ـ لأجل علاقة أفضل بين ستيلا ووالدها، أظن أن علينا دعوته إلى هنا ليلتقيا.

ـ حسناً.. لكن..

تحركت ميلاني نحو الباب قائلة:

ـ سأتصل به الآن.

ـ أوه.. ميلاني..

لكنها لم تنتظر سماع المزيد.. فأغلقت الباب بهدوء وأكملت طريقها لتتحدث إلى رينيه الذي كان مهذباً ودوداً، وقبل الدعوة بابتهاج، قائلاً:

ـ لكنني لا أعرف ما إذا كان عمي مرتبط بأي مواعيد هذا المساء.. إنه يعمل بجهد في الفندق.

ـ تذكر.. هذا ما تقوله أنت.

ضحك رينيه، وقال بصوت ناعم ممازح:

ـ إنه يعيش لعمله.. لكنني سأعلمه بالأمر.. قال لي إنك فاتنة، وأنا واثق من أنه سيرافقني إذا استطاع.

وضعت ميلاني السماعة مبتسمة.. ولم يشاهد أحد منهم جوليانوس خلال النهار.. قالت السيدة هاڤري إنه مشغول في ترتيب صفقة ما، وهذا ما أتى به إلى باريس، لكنه قال لها إنه سيحاول العودة هذا المساء.. وتنهدت السيدة هاڤري:

ـ وقد لا يعني هذا شيئاً.. فجوليانوس يأتي ويذهب دون أن يزعج نفسه بالإيضاح.

سرت ستيلا لذلك.. لكن نظراتها المتواصلة لساعتها كانت تقول لميلاني إنها متوترة.

كان يمكن لميلاني أن تقول لها: لا تكوني متوترة، لا تقلقي،

سيجري كل شيء على ما يرام! لكنها تعرف أن ستيلا لن تصغي إليها ولن تصدقها. ففي سن السادسة عشر، كل ثانية من كل دقيقة من الساعة، هي صراع مع الممكن والمستحيل. دون شك، بعد بضعة أعوام، لن تتذكر اسم رينيه، أو شكله، لكنه اليوم أهم شخص في العالم. وزيارته لتناول القهوة، أو الشاي، مع العائلة هذا المساء هو الموضوع الأكثر أهمية بالنسبة لستيلا.

تساءلت ميلاني إذا ما كان هناك طريقة أخرى للعيش؟ ربما خلال فترة المراهقة فقط يمكن تفهم سرّ الحياة.. لأنه بالنسبة لستيلا، كل لحظة في الحياة فيها ما يكفي من البهجة لعيش عمر بأكمله.. الأمر الذي جعل ميلاني تحسدها على هذا الإحساس العميق رغم بُعد ستيلا عن الانخراط في الحياة بهذا الشكل، بسبب طبعها الحاد.. إنها تعاني الكثير من التقلبات العاطفية.

لكن ميلاني سخرت حياتها للعمل.. فقد كانت بالكاد ترفع رأسها لتنظر خارج المستشفى. لأنها كانت تعيش معظم أوقاتها خلف قناع بارد متكتم، أضفى عليها صبغة السلطة المتجهمة التي تتطلبها وظيفتها، وأصبح وجهها وتصرفاتها، وأسلوب حياتها تدريجياً جدار رقيق لا يمكن اختراقه.. «زي» يخفي ميلاني الحقيقية! وحين يمضي المرء سنوات عدة في عزلة يصبح من الصعب اختراق ذلك الجدار.

تمكنت ميلاني أن تفعل هذا لأجل ستيلا فقط، ولو جزئياً، وفي هذا الوقت بالتحديد، لأن ستيلا تحتاج إلى المساعدة. لكن، حتى في ذلك الوقت، لم تظهر ميلاني أي جزء من حقيقة نفسها.. ولا زالت ستيلا لا تعرف شيئاً عن ميلاني الحقيقية.

خلال سن المراهقة، يكون هناك ميل قوي لرؤية الأشياء بالأبيض والأسود، بعين ناقدة إذ أن ستيلا تكره أباها بمرارة.. تتحمل جدتها.. وترى ميلاني كصديقة، حليفة لها.

وهذا بالضبط ما أرادته ميلاني. إنها خطوة على طريق إيصال ستيلا

لأن تدرك، أن العالم كله ليس مؤامرة خبيثة ضدها، وان حياتها، بطريقة أو بأخرى بين يديها. ويجب أن تنال المساعدة لتسير في طريق مختلفة قبل فوات الأوان.

وصل رينيه وجان بول، في الوقت المحدد، ولم يكن هناك أي أثر لجوليانوس.. لكن السيدة هاڤري، كانت متشوقة للقائهما، تحت ستار ابتسامتها المهذبة.. وكانت مستعدة لتحيتهم.. بينما كانت ستيلا تحوم حولهم وعلى وجهها تعبير مرتجل.

تحدثت السيدة هاڤري مع جان بول وهي تبتسم.. لكن عيناها كانتا دائماً تتجهان إلى رينيه.. وبالتدريج استراحت، وأصبحت ابتسامتها حقيقية. كان رينيه يرتدي بذلة خفيفة زرقاء اللون، وقميص أبيض وربطة عنق.. بدا أنيقاً وأصغر مما يبدو بالجينز.. كانت كياسته بالكاد تخفي حذره القلق للقاء عائلة ستيلا.. تأملته السيدة هاڤري واستطاعت أن ترى أنه صاف لا ضرر منه ككوب الحليب.

كان يبدو على وجه جان بول ملامح التسلية وهو يجلس قرب ميلاني.. قائلاً لها مبتسماً:

ـ أتظنين أن رينيه سينجح في الامتحان؟

ردت له الابتسامة قائلة:

ـ أظن أن السيدة هاڤري تود فقط التعرف إليه.

ـ أفهم الآن سبب ترددك حين التقينا في «ڤرساي». عائلتها ثرية جداً.

لم تحاول ميلاني الرد على هذا. كان سؤالاً أكثر منه مجرد كلام.. وقد خمّن جان بول ذلك من فخامة الشقة والألماس الذي ترتديه السيدة هاڤري.. وأكمل يقول ببرود:

ـ يجب أن يكون المرء حذراً.. مع فتاة مثلها.. يجب أن يكون حذراً جداً.

ـ عائلتها حذرة جداً.

هز رأسه:

- قال لي رينيه إن والدها يوناني.

- أجل.

رفع حاجبه متسائلاً:

- لكنه لم يستطع تذكر الاسم.

- بيلانوس.

تغير وجه جان بول، وعض على شفته بصمت.. ثم قال:

- إذن هذا يفسر كل شيء.. لا ينتمي رينيه إلى الطبقة الاجتماعية ذاتها.. أليس كذلك؟

نظرت ميلاني إلى رينيه، الذي كان يتحدث إلى ستيلا وجدتها، وكانوا يضحكون ووجوههم مرحة. لم ترد ميلاني على ملاحظة جان بول، لكن عيونهما التقت، وتبادلا نظرات التفاهم.. سأل بقلق:

- وأنت؟ هل أنت أيضاً فرد من هذه العائلة الثرية؟

ابتسمت ميلاني قائلة:

- أنا ممرضة، لا عائلة لي أبداً.

- لا عائلة؟

- ولا مال.

تمتم، بحشرية واضحة:

- هكذا إذن.. أنت مجرد صديقة للعائلة؟

- أنا أعمل لديهم.. أنا هنا مرافقة لستيلا.

تنهد بعمق:

- آه.. لقد بات كل شيء واضحاً الآن.

- أجل.

راقبت وجهه، متسائلة عما يدور في ذهنه، ثم قال بارتياح:

- إذن، هل تتناولين العشاء معي في إحدى الأمسيات.. أريد التعرف إليك أكثر.. أتعلمين، لقد فكرت حين حاولت تجاهلنا في فرساي أنك لم تعجبي بي.. وأسفت لهذا لأنني اعتبرتك فاتنة وجميلة.. ولقد ارتحت

حين أيقنت أن لا شيء شخصي في محاولتك صرفنا.

- كنت أقوم بواجبي فقط.

- إذن هل تتناولين العشاء معي؟

ابتسمت:

- أجل، لا مانع لدي..

- مساء الغد؟

فكرت قليلاً.. فهي لم تكن قد حصلت على فرصة منذ وصولها إلى باريس، ومن المتفق عليه أن يكون لها أمسيتان راحة في الأسبوع.

- أجل.. شكراً لك.

- أيمكن أن أصطحبك من هنا؟ في السابعة والنصف؟

- سيكون هذا رائعاً.

نظر إلى ساعته متنهداً:

- أخشى أن أكون مضطراً للذهاب. لدي موعد آخر. سأراك في الغد.

تقدم يودع السيدة هاثري وهو يبتسم لها ويبادلها كلمات مهذبة.. وسألته:

- أيجب أن تذهب؟

- أخشى هذا. سرني اللقاء بك. أرجو أن تسمحي لي أن أدعوك إلى عشاء في أمسية ما.

ابتسم بطريقة جعلت السيدة هاثري ترد له ابتسامته بسعادة.. ثم سأل:

- ألم يحن الوقت للذهاب رينيه؟

وقف رينيه بتردد.. فقالت ستيلا بسرعة:

- أوه.. وهل أنت ذاهب أيضاً؟

لم يعرف رينيه ما يقول، فنظر إلى السيدة هاثري، التي نظرت إليه، ثم قالت باستدراك:

- ابق هنا رينيه، وتناول العشاء معنا.

ابتسمت ستيلا، ودست يدها في ذراعه:

- أجل.. تناول العشاء معنا.

كان جان بول يراقب السيدة هاثري.. وقال: ربما..

لكنها ابتسمت له وقاطعته:

- نرحب ببقائه معنا.

هز جان بول رأسه بوقار قبل أن يخرج.. وفهمت ميلاني سبب تردد جان بول بترك رينيه معهم.. فهو يرى بوضوح أن لا مستقبل لهذه الصداقة، وكان يفضل إيقافها قبل أن يتألم رينيه.. لكنها لم توافقه الرأي.. فرينيه وستيلا، صغيران جداً وليس من المحتمل أن تؤلم صداقتهما أياً منهما.

جرّت ستيلا رينيه ليستمعا معاً إلى آخر الصرعات الموسيقية في غرفتها، بينما نظرت السيدة هاثري إليهما يذهبان، بارتياب.. وقالت لميلاني:

- أرجو أن يكون ما نفعله هو الصواب.. سأذهب لأتمدد قليلاً قبل العشاء، عزيزتي.. أشعر بالإرهاق بعد كل هذا.

ضحكت ميلاني:

- أنا واثقة أنك مرهقة. فالأمر مرهق للأعصاب.. أعجبك رينيه.. أليس كذلك؟

تنهدت:

- إنه شاب وسيم.. لكنني أرجو أن يكون هذا رأي جوليانوس أيضاً.

استلقت ميلاني على الأريكة، وأغمضت عينيها.. إنها تفهم تعب السيدة هاثري النفسي، لأنها تشعر بالتعب ذاته. فلقد قامت بمخاطرة كبيرة بقبولها مجيء رينيه وجان بول إلى هنا.. لكن المخاطرة، أثمرت كما يبدو.

- متعبة؟

جعلها الصوت تنتصب، وقلبها يخفق بنغم مجنون. تقدم جوليانوس

إليها، ويداه في جيبي بنطاله، وهو يبتسم.. بدا لها مثيراً جداً، تملكتها الدهشة من نفسها لتفكيرها هذا. لكنها تمكنت من أن تقول بصوت أجش:

- مرحباً.

كانت تعرف أن وجنتيها توردتا وأن عينيها الزرقاوين اتسعتا، ارتباكاً.. سألها بصوت منخفض:

- هل أنت هنا بمفردك؟

حاولت أن تستعيد رباطة جأشها لتسيطر على سرعة نبضات قلبها: أجل.

سألها ساخراً:

- أرجو أن لاتكوني قد فقدت ستيلا ثانية.

- أوه.. أنا أعرف تماماً أين هي.

تقدم إلى الطاولة حيث إبريق القهوة الكهربائي، وصب لنفسه قليلاً من القهوة.

- وأين هي؟ أتشاركينني؟

- لا.. شكراً.. أفضل كوب عصير.

عاد بعد لحظات وهو يحمل كوب عصير لها، وفنجان قهوة له وجلس، ينظر إليها من فوق حافة الفنجان وهو يحتسي القهوة.

- تبدين فاتنة جداً.

أخذت عيناه السوداوان تجريان فوق شعرها الأشقر الناعم، ثم أخذتا تهبطان ببطء إلى وجهها وجسدها مما جعلها تقشعر.. كانت ترتدي فستاناً أسوداً بسيطاً.. جعلها تبدو نحيلة، هادئة، وتتبع جوليانوس تقاسيم جسمها دون أن يخفي إعجابه.

حين عادت عيناه إلى وجهها التقتهما ببرود.. فضحك:

- أنت سيدة هادئة جداً.. لا؟

سألته ببرود:

ـ صحيح؟

ـ أوه.. كثيراً.. أتعلمين، لم ألتق يوماً بامرأة تسيطر لهذه الدرجة على نفسها.

ـ هل هذا نقد أم تقدير؟

ـ لا هذا ولا ذاك.. مجرد قول.

بدا أنه نسي موضوع مكان وجود ستيلا، ولم ترغب ميلاني في إثارته مجدداً. كانت ترغب في أن تتسلل بعيداً عن القرب الحذر من جوليانوس بيلانوس، لكنها بقيت جالسة تمسك بكوب العصير، تفتش في ذهنها عن موضوع مستساغ تطرقه معه.. فهي تخشى لو تركته، أن يتجول، ويعرف أن رينيه مع ستيلا في غرفتها.

أدركت ميلاني أنه قد آن الأوان لأن تخبره بوجود صديق ستيلا. لكنها ولسبب ما لم تستطع مواجهة الأمر. ربما لأنها لا تريد أن ترى هذا الرجل الساحر، المهذب يختفي فتواجه ذلك البربري المتوحش الذي يحل محله في لمحة بصر.

ـ ماذا فعلت أنت وستيلا اليوم؟

ـ ليس الكثير.. تجولنا وتسوقنا قليلاً.

وضع جوليانوس فنجان القهوة من يده وقال:

ـ لماذا لا نتناول العشاء في مكان ما الليلة؟

أحست ميلاني بأعصابها متشنجة، فقد فاجأتها الدعوة وفقدت القدرة على النطق.. فوقف ينظر إليها بسخرية:

ـ خائفة؟

ضحكت:

ـ بالطبع لا.

ـ أثبتي هذا.

مد يده لها، ليساعدها على الوقوف فأمسكت بيده وفيما هي تنظر إليه، ابتسمت عيناه لها بسخرية.

ـ أنا واثق من أننا سنجد الكثير لنقوله.

حذرتها غريزتها من أنها تلعب بالنار إذا ما قبلت الدعوة. فالنظر في تلك العينين السوداوين ساحر ومثير معاً، إن خرجت معه ستواجه مشكلة في التعامل مع كلامه الرقيق لأنها أدركت ليلة أمس أنها تستهويه.. ومع أنه لم يلمسها، كانت عيناه مثيرتان، وصوته مداعب.. ولو خرجت للعشاء معه الليلة، سيعتقد أنها تشجعه، فيتمادى.

بينما كانت تراجع الموقف بسرعة وتردد. بادر جوليانوس قائلاً:

ـ سأخبرهم أننا لن نكون هنا للعشاء، أحضري معطفك.

ـ لكن..

لم يتوقف لسماع ما تريد قوله... فتردد، لحقت به وأخذت معطفها.

ـ جاهزة؟ لا داعي لهذا التجهم فأنا لست بهذه الوحشية.

ـ هذا يطمئنني.

ضحك وهو يمسك يدها، مصطحباً إياها خارج الشقة.

ـ فيك صفات كثيرة تروق لي غير التي تراها عيناي..

ـ شكراً لك سيد بيلانوس.

ـ قلت لك جول.

حدقت به ثم قالت بعد صمت قصير: جول.

رماها بابتسامة دافئة جعلتها أكثر اضطراباً.. لأنها لا تود الإعجاب بجول إلى درجة كبيرة ولا أن تلاحظ البريق المثير في العينين السوداوين، ولا جاذبية جسده الطويل الرشيق. إنه خطير جداً.. ولا يمكن أن يكون هناك مستقبل لكل هذا، ولا تريد أن تجد نفسها مع قلب محطم تحاول شفاؤه خلال أسابيع. من السهل جداً أن تترك نفسها تقع في حب رجل جميل الطلعة وساحر مثله.. فالوقوع في الحب أمر رائع.. كله سعادة.. لكن إذا ما اختفت هذه السعادة، يشعر المرء بأنه سقط في بئر فلا يسمع سوى الصدى ولا يبقى له سوى الآثار.. وآثار الحب فظيعة مزعجة، وهي

لا تريد تلك الآثار . .

تمتم جوليانوس بينما كانت ميلاني تركب في الليموزين السوداء، وهو ينظر إليها بمرح فيما هي تتأمل فخامة السيارة:

ـ أتحبين المغامرة؟!

أنا . . أحب المغامرة! لا . . سيد بيلانوس .

* * *

www.liilas.com/vb3
Aml

٦ ـ هل تقول لا؟

كان المطعم الذي تعشيا فيه، في الطابق الأرضي لواحد من أكثر فنادق باريس شهرة . . يطلّ على ساحة الكونكورد، التي كانت، حتى تلك الساعة، تعج بالناس والسيارات، خالج ميلاني إحساس بأن وجودها في هذا المكان مع جوليانوس يتناولان العشاء بمفردهما هو حَلم لا يصدق . . ولكم أذهلها ذلك فاستدارت لتنظر الى الرجل الجالس الى الجانب الآخر من الطاولة والذي رفع حاجبه متسائلاً . .

ـ أهناك شيء يسليك؟

ـ الحياة نفسها . .

ـ أتجدين الحياة مسلية؟

ـ أحياناً . . ألا تجدها هكذا؟

رد بصوت جاف:

ـ ليس بشكل خاص .

ـ لعلك لا تمنحها فرصة لذلك .

تساءلت ما هي حقيقة هوية الرجل الذي يخفيها خلف هذا الوجه الوسيم القوي، أهو هذا الساحر المحنك المبتسم لها الآن، أم هو المتسلط القاسي مع أفراد عائلته، أم هو يدير امبراطورية تجارية ضخمة . . ؟

أبعد جول نظره عن عينيها المبتسمتين إلى فمها الدافىء . وتمتم:

ـ سأعطيك يوماً فرصة لتسليتي .

وأحست بحرارة شديدة تتصاعد إلى وجهها. راقبها، والسخرية في ابتسامته، وكأنه لا يكفيه تورد وجنتيها.

ـ هل هناك رجل في حياتك؟

ردت ببرود:

ـ المئات!

شهق وكرر غير مصدق:

ـ المئات؟

ـ أعمل في مستشفى تعج بالناس.

ضحك بنعومة:

ـ تعرفين ما أعني.

التوى فمها:

ـ أعرف ما تعني.

ـ لكن تفضلين أن لا تجيبي على هذا السؤال.

ارتشفت قليلاً من العصير:

ـ لماذا تريد أن تعرف؟

رجع في كرسيه إلى الوراء.

ـ هل أنا مضطر لتوضيح ما أعني؟

ـ أجل.. أرجوك، فلي تفكير بسيط، ومباشر.

قال ببطء:

ـ أنت.. كاذبة.

ضحكت:

ـ هذا قول غير لائق!

ـ تفكيرك بعيد جداً عن البساطة وليس مباشراً بكل تأكيد. في الواقع، قد أقول أكثر.. قد أقول ان لك تفكيراً ملتوياً.

عبست.

فسارع الى القول:

ـ تحدثت طويلاً مع أمي.. ومما قالته لي، إنك تتعاملين مع ستيلا ببراعة ومراوغة.

ـ إنها براعة.. هذا كل شيء.

هز كتفيه:

ـ إذا كنت تفضلين تسميتها هكذا. إن والدتي تتغنى بالثناء عليك، وما كنت لألاحظ هذا لولا أنني رأيت بنفسي كيف توليت أمر الحديث ببراعة.

لم يعجبها وصفه لها، والتقى حاجباها مقطبة.. لكنه قال:

ـ أنا أقصد المديح من هذا.. ظننت أنك لن تتمكني من التعامل مع ستيلا.. وأنا أسحب كلامي.. إذا تمكنت من التعامل معي، يمكنك التعامل معها.

تمتمت بهمس:

ـ لم أكن أخطط لأن أتعامل مع أي منكما.

تنهد قائلاً:

ـ أتمنى أن تفكري بهذا.. بالنسبة لي.

تقدم النادل لأخذ الأطباق الفارغة، بينما كانت تحاول استيعاب ما قاله، دون جدوى فقد كان كل شيء يسير بخفة، في صباح الغد قد تتمنى لو أنها بقيت في الشقة حيث تكون آمنة.

لم تكن قد التقت برجل مثله، ومع أنها كانت قادرة على أن لا تفقد هدوئها، كان لديها ارتياب مريع بأنه يخطط لأن تفقد هذا الهدوء فيما بعد.. كان هناك صوت يحذرها على الدوام من أن هناك خطر حقيقي بأن ينفذ جول ما ينوي.

ما إن نظرت إليه حتى وجدته يراقبها.. يا إلهي إنه وسيم جداً.. توقفي عن النظر إليه.. فقد تعتادين على هذا، وهو أمر خطر.

تأخرا في تناول القهوة.. يتحدثان حول فرنسا وباريس والأماكن التي شاهدتها مع ستيلا في الأسبوع الماضي.. فهو يعرف المدينة عن كثب ويتحدث عنها بإعجاب ومعرفة، فيما ميلاني مصغية إليه ومحدقة به..

كان يبدو مدمراً، كان يخفف من حدة خطوط فمه القاسية ابتسامة خفيفة، وبشرة وجهه السمراء ناعمة وعيناه السوداوان ساخرتان مغريتان.

في طريق العودة إلى الشقة، كانت متوترة، مع أنها كانت تخبىء هذا وراء ابتسامة هادئة، وحديث عادي خفيف.. وعندما وصلا وجدا المكان مظلماً هادئاً. فقال دون أن يكون لما قاله ضرورة:

ـ الجميع نائم.

بعد دخوله غرفة الجلوس الأنيقة قال:

ـ سأتناول كوباً من العصير.. ماذا يمكنني أن أقدم لك؟

ترددت قليلاً، ثم قالت:

ـ عليّ أن أخلد إلى النوم.

نظر إليها شزراً، ثم ابتسم ممازحاً.

ـ تعالي واجلسي لترتاحي. لم يتأخر الوقت كثيراً بعد.

ـ ربما يجب أن أتحقق ما إذا كانت ستيلا في غرفتها.. لا نريدها أن تكرر ما فعلت ليلة أمس.. صحيح؟

رد بنفاذ صبر:

ـ انسي أمر ستيلا.. فقد نسيته أنا نفسي، اجلسي ولا تكوني متعبة.

هزت كتفيها وجلست، تملس فستانها الأسود الذي يحتضن جسدها بشدة، بينما كان يتأملها مبتسماً:

ـ أنت نحيلة جداً.

ـ آسفة لهذا.. أعرف أن من تخرج معهن من السيدات يكن عادة مغريات أكثر مني.

ارتفع حاجباه:

ـ يبدو في نبرة صوتك الاستياء.

ضحكت من نفسها:

ـ أليس كذلك؟ كم أحب لو يكون لي جسد مثل جسد مارلين مونرو.

ـ أنت مثيرة وإن كنت نحيلة..

ارتشفت قليلاً من شرابها. ورغم إدراكها أنه لا يجدر بها الحديث عن مثل هذه الأمور، إلا أنها شعرت بعدم الاكتراث.

كان جوليانوس قد أضاء المصباح إلى جانب الأريكة لتوه.. فأصبحت الغرفة تشع نوراً من حولها كمثل النور الذي يشع في داخلها، أسند رأسه إلى الوراء بالقرب منها، وأخذ يتحدث حول فيلم سينمائي شاهده في الأسبوع الماضي..

حين أنهى شرابه، ووضع الكوب من يده أحست بمزيد من القلق، ثم مال نحوها يأخذ منها كوبها، ويضعه قرب كوبه.. كانت حركته عفوية، لكن مدروسة. كانت تعلم أنه سرعان ما سيعانقها وهو يعرف أنها تعرف، وكانت عيناه تحملان ابتسامة ساخرة وهو يتحرك نحوها.. ثم تمتم وأصابعه الطويلة تحيط بوجهها:

ـ الآن.. دعينا نرى كم أنت باردة حقاً.

كان ذلك سؤال يزعجها معظم الأمسية. لم يكن أحد من الرجال الذين عرفتهم في الماضي قادر على إغوائها. رغم أن بعضهم كان لطيفاً جداً، والبعض الآخر وسيم.. لكن ما من واحد منهم أثارها.. غير أنها كانت تحس بارتياب بأن جوليانوس سيفعل.

كانت تعرف أيضاً أن عليها أن توقفه قبل أن يتمادى في هذا. فقالت في نفسها إنها لا بد وأن تكون مجنونة، فهي تخطو إلى مخاطرة مجنونة

قالت لنفسها إن عليها أن تتذكر، أنه ثري جداً، له تجارب سابقة، محنك، شخص ينتمي إلى عالم غريب عنها تماماً، ومهما حدث بينهما الليلة، فهذا لن يعني له شيئاً سوى التسلية بينما بالنسبة لها قد يعني الكارثة.

لطالما تفاخرت ميلاني بنفسها لرصانتها ورجاحة عقلها.. لكن يبدو أنها فقدت ذلك.. ورغم أنها لطالما كانت كذلك إلا أنها الليلة لا تملك شيئاً من هذا.

نظرت إلى ذلك الوجه الساخر القاسي، الوسيم، وعرفت أن عليها

معرفة حقيقة شعورها وهي بين ذراعيه.

حبست أنفاسها، شاهدت وجهه بضبابية، للحظة من الزمن قبل أن تغمض جفنيها.. ببطء وإثارة، شدها نحوه، مما دفعها إلى أن تندفع نحوه أكثر، أحست بالضحك يتفجر داخله، ثم أصبحت ذراعاه الرقيقتان، قاسيتان ملحّتان ولم يعد فيهما شيء من المزاح أو اللعب وهو يشدها بالكامل بين ذراعيه.

لقد تساءلت عما يمكن الإحساس به بين ذراعيه. وها قد عرفت.. إنه إحساس مذهل، مشتت، حتى أنها تاهت، يداها تتحركان دون توقف تستكشفان شعره، كتفيه.

ولم تدر كيف أصبحت مستلقية إلى جانبه فوق الأريكة، فقد استولى الوهن على عقلها وجسمها.. وسجنتها السعادة لتجعلها عاجزة بين يديه، ولا تحاول الخلاص.

في أعماق عقلها الواعي، اعترفت لنفسها أنها لن توقفه، أو أنها لا تريد أن توقفه.

ما إن واجهت هذه الحقيقة حتى بدأت تحسّ ببدء انحسار مشاعرها المحمومة.. كيف وصلت إلى هذه النقطة؟

عاد ذلك الصوت في رأسها يقول لها بإصرار عنيد، إن عليها وخلال دقيقة واحدة أن تحسم أمرها لأن جول لن يكون سعيداً لو قالت له «لا» الآن. إذ أن كل ما فعلته، كل ردة فعل حصل عليها منها خلال الربع ساعة الماضية كانت تصيح بصوت مرتفع واضح «نعم».. ما كان يجب أن تتركه يقترب منها أصلاً، فأوصلها ذلك الاندفاع المتهور إلى هذه اللحظة.. وهي تدرك ذلك فهي ليست طفلة.

رفع جوليانوس رأسه فجأة، متصلباً:

ـ ما الأمر؟

فتحت عينيها تنظر إليه بقلق:

ـ ما الأمر؟

قال بنفاذ صبر:

ـ لقد تحولت إلى ميتة بين يدي، وكأنني أعانق تمثالاً منذ دقيقة كاملة.

أنزلت ميلاني يديها عنه، وتمتمت بعينين منخفضتين:

ـ أنا آسفة.

سأل بصوت قاس أجش:

ـ آسفة؟ ما الذي تعنينه.. آسفة؟ ما الذي جرى؟

قالت بصوت ضعيف رفيع:

ـ لا أستطيع.

ـ لاتستطيعين؟

ساد صمت رهيب، ورفع ذقنها بيده ينظر إلى عينيها المتوترتين:

ـ أتحاولين قول «لا»؟

ـ أنا لا أحاول، بل أقول «لا» بالفعل، سيد بيلانوس!

آلمتها أصابعه وهو يشد عليها، ثم تمتم ساخراً:

ـ ليس في هذه المرحلة المتأخرة من اللعبة.. منذ دقيقة كنت معي بالكامل.. ماذا جرى؟

بعد أن جلست جاهدة، قالت:

ـ لا بد أنني جننت.

رد بحدة:

ـ ولا بد أنك مجنونة الآن لتظني نفسك قادرة على رفضي هكذا. أنا لا أحب المداعبات المزعجة الباردة. أي نوع من الرجال تظنينني؟

أدار رأسها المشاح عنه، لكنها قاومته، بغضب شديد الآن، تؤلمها أصابعه وهو يشدها إليه. فسارعت ميلاني إلى الوقوف على قدميها وهربت، تقطع الشقة المظلمة وجوليانوس يركض خلفها، بصمت مطبق.

أمسك بها بوصولها إلى باب غرفتها، ثم أمسك بكتفيها ليديرها إليه لكنها دفعته بقوة حتى أنه تراجع إلى الخلف، فدخلت مسرعة إلى غرفتها،

وأقفلت الباب بالمفتاح، تسند وجهها إلى الخشب البارد، في وقت أخذ الخوف يتملكها.. حاول فتح الباب لكن دون جدوى. وسمعت أنفاسه من الجهة الأخرى.. كان يتمتم بكلمات يونانية لم تفهم منها شيئاً، لكنها أدركت المعنى لأنه كان يجعل مما يعني واضح جداً.

سمعته يبتعد.. ببطء استدارت نحو السرير وجسدها يرتجف، والضعف يتملك ركبتيها.

حين استلقت على ظهرها، مرتجفة، اعترفت لنفسها أن جوليانوس ليس لوحده من يعاني الإحباط.

رفعت الغطاء فوق رأسها، راجية أن يتوقف عقلها عن التفكير، لكن ذلك لم يحصل بالطبع، لقد تمكن جوليانوس أن يقودها إلى حافة الاستسلام بسهولة، لأنه يعرف بالضبط ما يفعله. وذلك بفضل خبراته السابقة مع نساء أخريات.. غير أنها في النهاية وبعد التفكير في الأمر، أثار ذلك اشمئزازها.. فقد كان يعرض عليها متعة بمثابة عملية آلية، مجرد روتين، وهذا ما لن تستطيع أن تتحمله.

نامت لوقت قصير، لتستيقظ مع الفجر، وتتسلل من فراشها.. وتقف أمام النافذة تنظر إلى باريس، بينما كان قرص الشمس الأحمر يتصاعد من الأفق، ويرسل انعكاسات من الأبنية حول «غابة بولونيا».. كما أن زحام السير كان قد بدأ بالتدفق إلى باريس من مختلف الاتجاهات..

استحمت باسترخاء، وارتدت ملابسها لتخرج وتتناول فطوراً مبكراً، فأعصابها متوترة، وكانت تخشى من مواجهة جوليانوس الآن، فهي لا تستطيع أن تتصور الطريقة التي سيعاملها بها بعدما حدث ليلة أمس.. بدا الإحراج جلياً على وجهها بينما هي تسير في الشقة، وتمنت أن لا يبدو هذا على وجهها.. لكنها لم تجد له أثراً على مائدة الفطور. كانت أول المستيقظين، وبعد ذلك شربت قهوتها وعينها على الصباح الوهاج.. بعد خمس دقائق، ظهرت ستيلا، وجهها مشرق كإشراق ذلك الصباح.

- صباح الخير.. هل نمت جيداً؟ نمت دون حراك طوال الليل..

أوه.. جيّد، مربى الكرز، إنه المفضل لدي، إنه ألذّ من البرتقال.. أتساءل لماذا لا يأكله الإنكليز؟

ردت ميلاني بذهول، بينما كانت ستيلا تدهن المربى الأسود على قطعة الكرواسان:

- الكرز عندنا لا يصلح لتحضير المربى.. فهو للأكل فقط.

قضمت ستيلا الكرواسان بأسنانها البيضاء. فأشاحت ميلاني نظرها عنها وشربت المزيد من القهوة، سألتها ستيلا:

- ما رأيك بالذهاب إلى «شارتر» اليوم؟

- «شارتر»؟ إنها بعيدة جداً عن باريس.

- سيحاول رينيه إقناع جان بول بأخذنا إلى هناك. صحيح أن رينيه يجيد قيادة السيارة، لكن جان بول لا يسمح له باستعمال سيارته.. أليس شريراً؟

- بلى إنه شرير فظيع!

لكنها كانت تدرك سبب رفض جان بول، لا شك أنه تصور سيارته حطاماً.. صحيح أن رينيه شاب متعقل، لكن خلف مقود سيارة سريعة، حتى أعقل الرجال يتحول إلى متهور. وكأنما الإحساس بكل تلك القوة في متناول اليدين يثير.

رن جرس الهاتف، فسارعت ستيلا لتجيب، والإثارة على وجهها، ثم عادت فرحة.

- قال جان بول إنه سيأخذنا.. سيأخذ يوم راحة وسيأتيان لاصطحابنا بعد ساعة من أمام المبنى وسنترك رسالة موجزة لجدتي.. الوقت مبكر لإيقاظها.

ركزت ميلاني عينيها على فنجان القهوة، وحاجباها معقودان، ثم سألت ببرود:

- وماذا عن والدك؟

لن يعجب جوليانوس الأمر، وستيلا تعرف.. لذلك لوت ستيلا فمها

وقالت:

- على الأرجح سيعمل طوال اليوم.. فأنا أعرفه. هذا كل ما يفكر به.. العمل، حتى أنه لن يلاحظ غيابنا.

- وإذا لاحظ؟

ابتسمت ستيلا:

- ستقول له جدتي إننا ذهبنا إلى «شارتر». وسيتقبل هذا. على أي حال لن يهتم طالما أنت معي.

هذا صحيح، على الأرجح وإذا خرجت هي وستيلا طوال اليوم، لن يكون هناك خطر أن تواجه جوليانوس. وسيؤخر هذا الساعة اللعينة التي ستضطر فيها لمواجهته.

كانت ستيلا تنظر إليها، وبسمتها تتحول تدريجياً إلى عبوس.

- أنت قادمة معي.. أليس كذلك؟

ابتسمت لها ميلاني:

- طبعاً.. سأحب هذا، فأنا متشوقة لرؤية «شارتر».

جلا وجه ستيلا، وعادت الإشراقة إليه:

- هذا ما ظننته.. يمكننا أنا ورينيه، التجوال في البلدة، بينما تتفرجين مع جان بول على الكاتدرائية.

لم تكن ميلاني بحاجة إلى تخطيط.. فقد فكرت ستيلا ورينيه بهذا اليوم في «شارتر» ليتمكنا من قضاء الوقت لوحدهما دون اعتراض من عائلة ستيلا. و«شارتر» هي الصنارة، وميلاني هي الطعم لجان بول.. يا له من تفكير منظم، وذكي جداً.. مع أنهما لا يزالان صغيرين، فهما يتمتعان بخبث شديد وبراعة في التنفيذ.

قالت معلقة، وبريق المرح يتراقص في عينيها.

- أنت ذكية جداً.

فهمت ستيلا قصد ميلاني وضحكت، وقالت بعد أن علا الاحمرار وجهها:

- أجل.. حسناً سأذهب لأستعد.

- سأكتب الرسالة لجدتك.

لم يكن لديها اعتراض على خطة ستيلا.. وواقع أنها فكرت بها يدل على أنها أدركت أنه ما من عداء سيحصل مع عائلتها لو أنها خططت للقائها برينيه بحذر، وبوجود ميلاني.. ومن الأفضل لعلاقتها معه أن تكون علنية، فهذا ينزع عن هذه العلاقة صفة الإثارة ويجعلها صداقة عادية.

كتبت رسالة حذرة للسيدة هاثري، واستعدت لتلتقي بستيلا وهي تخرج من غرفتها، تقفز وترقص كفتاة في الخامسة من عمرها.

حين التقتا برينيه وجان بول.. أخفت ستيلا ذلك التوتر المحموم وبدت فجأة باردة وفظة. قالت وهي تجلس في مؤخرة السيارة مع رينيه:

- مرحباً.

- مرحباً.

غمز جان بول لميلاني وابتسم، هامساً:

- يجعلانك تشعرين بالصغر.. أليس كذلك؟

مالت ستيلا إلى الأمام تطلب أن تعرف ما قال فرد عليها وهو يدير محرك السيارة:

- لا شيء!

اتجهت بهم السيارة إلى الطريق العام المزدحم، ثم إلى خارج باريس كانت الطريق تتلوى بين أميال من الحقول الواسعة الممتدة إلى مسافات تبدو لا نهاية لها، والضباب الأزرق لطل الصباح يتأرجح وكأنه الدخان الخفيف في الأفق.

ما إن خرجوا من ضواحي باريس حتى أسرعت السيارة تطوي الأميال.. وحدث جان بول ميلاني وعيناه الخبيثتان تكادان تلامسان وجهها.. فجأة قال:

- هناك.. ها هي شارتر.. أترينها؟

نظرت ميلاني إلى حيث أشار، وحبست أنفاسها ذهولاً وغبطة.. كانت البلدة تبرز من بين الأراضي المسطحة حولها وكأنها السراب، في النور الذهبي الوضاء، قبابها المستدقة تشق طريقها إلى عنان السماء الزرقاء.. وكأنما كاتدرائيتها وسط حقول القمح سفينة هاجعة.. حتى أن اللونين الأزرق والذهبي كانا يغطيان الكاتدرائية.. لتظهر وكأنها لوحدها، لا أبنية حولها ولا إلى جوارها.. استدارت ميلاني لتسأل جان بول بصوت أجش:

ـ ألا يوجد هناك مدينة؟

ابتسم:

ـ طبعاً.. لكنك لن تتمكني من رؤيتها من هنا.. فالكاتدرائية مبنية فوق تلة، والمدينة تحيط بالتلة وتتسلق جوانبها.. كل ما يمكننا أن نرى من هنا هو الكاتدرائية نفسها.

قالت ميلاني مغرورقة العينين للجمال الذي لا تترجمه أي كلمات:

ـ إنها أجمل ما رأيت في حياتي.

ابتسم جان بول ثانية راضياً عن ردة فعلها.

ـ أتعلمين، مضى على وجود هذه الكاتدرائية قرون طويلة، لكنها أحرقت في القرن الحادي عشر، والتي نعرفها اليوم بنيت على أنقاضها.. لم يكن هناك مال كثير، فالدولة لم تكن تموّل كل شيء.. لذلك بناها الناس بأنفسهم.

فتحت ميلاني فمها عجباً:

ـ هذا المكان الرائع الجمال، بناه أشخاص عاديون؟

ضحك:

ـ لا.. لم يقوموا بالبناء الفعلي.. فقد كان معهم أفضل المعماريين في أوروبا.. لكنهم دفعوا المال.. القرى الصغيرة في كل فرنسا، أرسلت المال قدر ما تستطيع، وكل ما تملك. كانوا فقراء جداً، أكثر فقراً مما نفهمه اليوم. لكنهم ضحوا حتى بطعامهم لأجل «شارتر».. وكان كل هذا

طوعياً..

ـ أمر مذهل في روعته.. لم يكن لدي فكرة عن هذا.

ـ آه.. اليوم سترين ما فعلوا بأيديهم وأدوات بناء بسيطة في القرن الثالث عشر..

ـ ما هو سر «شارتر» ليرغب الناس في التضحية بهذا القدر لإعادة بنائها؟..

هز جان بول كتفيه:

ـ هناك شيء سحري في شارتر نفسها، في التلة، في البلدة الصغيرة.

أشار باصبعه إلى خطوط الكاتدرائية الدقيقة المحفورة.

ـ يصعب القول ما هو هذا الشيء.. لكنه موجود.. وبإحساس مميز جداً.

حين دخلوا البلدة نفسها، تسلل بعض من السحر الذي لا يصدق من «شارتر»: كانت شوارع البلدة الرمادية المكتظة عادية. تبدو البلدة كأي بلدة صغيرة، لكن عندما استدار جان بول نحو شارع ضيق ملتوي، بدأت ميلاني ترى أن هناك مكانان اسميهما شارتر.. أحدهما البلدة الصغيرة الكئيبة تحت التلة، والأخرى ذات شوارع مذهلة من القرون الوسطى، وهم يتسلقون التل الذي ترتفع فوقه الكاتدرائية.

أوقفوا السيارة قرب الكاتدرائية، ووقفوا ينظرون إليها بذهول.. وصاحت ستيلا فاغرة الفم:

ـ واو.. هذا ما أسميه كنيسة.. انظر إلى نوافذها!

قال جان بول:

ـ إنها أشهر نوافذ مخرّمة في العالم على شكل وردة.. ألوانها رائعة.. هل ستدخلان معنا إلى الداخل؟

أمسكت ستيلا يد رينيه، وردت بسرعة:

ـ أظن أننا سنتمشى قليلاً في الخارج أولاً. اذهبا لوحدكما.. نراكما لاحقاً.

في الواقع مرت ساعة قبل أن يلتقيا بهما ثانية. رافق جان بول ميلاني في جولة على الكاتدرائية، ليريها كل كبيرة وصغيرة حتى أدق التفاصيل.. أحست ميلاني أن العمر كله قد لا يكفي لمعرفة كل شيء.. فهناك المنحوتات والزجاجيات والخشبيات الرائعة التي صنعت بإتقان ومهارة فائقان.

كان ستيلا ورينيه في أحد المحلات الصغيرة يتجادلان حول بعض التذكارات حين رآهما ميلاني وجان بول.. وقالت ستيلا:

ـ مرحباً، هل أمضيتما وقتاً ممتعاً؟

ـ وقت رائع.. هل تفرجتما على الكاتدرائية؟ لم نركما!

ردت ستيلا مراوغة:

ـ أعجبتني من الخارج أكثر.

ضحك جان بول:

ـ يا لك من محتالة! والآن، ماذا عن الغداء؟ هناك العديد من المطاعم هنا.

وجدوا مطعماً في شارع ضيق تحت الكاتدرائية تقريباً. وتناولوا وجبة لذيذة.. عادوا بعد الغداء، إلى باريس، لينعطفوا مجدداً عن الطريق الرئيسية لاستكشاف حزام الريف الذي يحيط بالعاصمة فوصلوا وسط المدينة بعد الظهر، قالت ستيلا:

ـ لماذا لا نتناول شيئاً في مكان ما؟ الوقت مبكر.

قالت ميلاني بهدوء:

ـ أظن أنه من الأفضل أن نعود.. ستقلق جدتك إذا بقينا وقتاً أطول.

هذا دون ذكر والدها.. وارتجفت لمجرد التفكير بردة فعله.. وكيف ستكون.. رغم أنه كما قالت ستيلا، قد يكون لا زال يلاحق أعماله المالية، ولن يأبه لما كانتا تفعلانه.

همس جان بول بشيء من العصبية لميلاني:

ـ لا تنسي أننا سنتناول العشاء معاً هذه الليلة.

ورغم صوت جان بول الهامس سمعت ستيلا الكلام ورأتها ميلاني تبتسم لرينيه.. فردت بهدوء، آملة أن لا يحمرّ وجهها، وتغضب من نفسها لاهتمامها بما تفكر به ستيلا:

ـ لا.. لن أنسى.

ـ سأمر لاصطحابك في السابعة والنصف.

هزت رأسها.. فأكمل:

ـ من حيث أخذتك هذا الصباح؟

هزت رأسها مجدداً:

ـ شكراً لك. وشكراً لك لليوم الرائع في شارتر.. لن أنسى أبداً أول نظرة لي إليها، إنها تجربة لا تنسى.. وأنا ممتنة جداً لأنك أريتني شيئاً بهذا الجمال.

قال جان بول:

ـ تمتعت بوقتي.. أحس دائماً بالإثارة لأن آخذ شخصاً إلى مكان أحبه.. خاصة إذا كان هذا الشخص مرهف الحس مثلك.

التفت إلى الوراء مكشراً في وجه الصغيرين:

ـ بعض الناس لا يعرفون كيف يقدّرون الجمال.

فعلقت ستيلا بسخط الشباب:

ـ هذا غير عادل! لقد أحببتها.. لكنني أكره التجول في المباني القديمة.. أحبها من الخارج أكثر.

ـ ها أنت تكررين ما قلتيه سابقاً!

وأوقف السيارة أمام المبنى. ابتسم جان بول لميلاني بحرارة، وقال رينيه لستيلا.

ـ سأراك فيما بعد.

وانطلقت بهما السيارة.. فقالت ستيلا كأنها تهنىء نفسها وهما تسيران إلى المبنى:

ـ قلت لك إنك ستستمتعين بالرحلة. أعرف أن جان بول معجب

بك.

ـ أوه.. أكنت تعرفين؟

ـ ما كان ليواعدك الليلة لو لم يكن معجباً. أليس كذلك؟

ـ أعتقد أن كلامك فيه شيء من المنطق.. لكن قد تكون دعوته لي من باب اللياقة.

ردت ستيلا بإصرار:

ـ وأنا أقول إنه ما من سبب لدعوته لكِ سوى إعجابه بك.

ضحكت ميلاني لما بدا من تعابير على وجه ستيلا وهما تتجهان إلى باب الشقة الذي انفتح بقوة قبل أن تصلاه، فتوقفت ضحكتها وهي تنظر إلى عينين لامعتين كالمعدن المصقول.

أطبقت ستيلا بحركة طفولية على يد ميلاني وتحركت لتقترب منها أكثر لتحميها ضد العدوان الرجولي الذي يهددها لكن جوليانوس لم يكن ينظر إلى ابنته.. بل كان ينظر بحدة إلى ميلاني.. وشفته متكورة بعيداً عن أسنانه، يسأل بتكشيرة خطرة:

ـ أين كنتما بحق الجحيم؟

* * *

٧ ـ لا يخطىء الهدف

رفعت ميلاني نظرها إليه محدّقة ثم قالت:

ـ ألم تريك أمك الرسالة؟

رد بحدة:

ـ أرتني إياها.. لكنها كانت تنقص بضع نقاط، أليس كذلك؟

شدت ستيلا على يد ميلاني لخوفها، فنظرت إليها بطرف عينها وعبست. رغم كون جوليانوس في حالة غضب مثيرة للخوف، لم تكن ميلاني تنوي أن تجعله يشعر أنه يخيفها. فنظرت إليه بحدة وقالت:

ـ ألا يمكن أن نبحث هذا داخل الشقة؟

ازداد غضباً، والتهبت عيناه، لكنه بعد تردد بسيط، تراجع إلى الوراء، فدخلت ميلاني أمامه تجر ستيلا المترددة معها.. وصفق الباب. فتركت ستيلا يد ميلاني، وهرعت إلى غرفتها تتعثر إلى أن غابت عن الأنظار.

كبتت ميلاني ابتسامة صغيرة وهي تراقب الفتاة الهاربة.. ثم نظرت إلى جوليانوس الذي لم يعجبه هروب ستيلا على الإطلاق.

أمسك بذراع ميلاني بعصبية وجرّها إلى غرفة الجلوس. لم يكن هناك أية رحمة في الطريقة التي أمسكها بها وكأنها فتاة صغيرة شريرة. ثم حدق بها وقال بنبرة موبخة:

ـ حسن جداً.. أين كنتما؟

ـ في «شارتر». لقد ذكرت هذا في الرسالة.

ـ لكن رسالتك لم تذكر أنك ذاهبة إلى هناك مع ذلك الشاب وعمه.

رفعت نظرها إليه، فأكمل والعدائية جلية على وجهه:

ـ أجل.. رأيتهما.. لقد رأيتكما تخرجان معاً من سيارتهما.. فلا تكذبي.

ـ لم أكن أنوي أن أكذب!

صاح بصوت أجش:

ـ هناك أكثر من طريقة للكذب، لكنني واثق من أنك تعرفينها كلها.

كان في عينيه غضب ثائر، لا يمكن جمحه أو السيطرة عليه ومن المؤكد أنه غير مرتبط بما حدث.. وقد كان مزاجه الحاد الثائر يشبه مزاجه ليلة تسللت ستيلا خارج الشقة.. فقد تفجر جوليانوس كبركان ثائر، ينفث غضباً مخيفاً، وهذا يدل على أن الغضب هو في أصل طباعه وأن أية حادثة بسيطة قد تفجره. وقال بنبرة فظة:

ـ النساء يكذبن بسهولة تماماً كما يتنفسن. إنها طبيعتهن الثانية.

ردت عليه بنظرة هادئة، لكن قلقة:

ـ لأتم الرسالة أقول إنني وستيلا ذهبنا إلى «شارتر» مع رينيه وجان بول تريكارد.

لم تتحرك عيناه عنها.

ـ أظن أنني أوضحت عدم رغبتي في أن يكون لابنتي أي صلة بهذا الشاب.

ـ لأنك كنت قلقاً من أن يكون له تأثير سلبي عليها.. لهذا دعوته إلى هنا لتناول الشاي معنا بالأمس..

ـ ماذا؟

ـ والتقى بأمك.

ـ ماذا؟.. فعل ماذا؟

كان الغضب قد شوّش تفكيره، ولونه القاتم يزداد وأكملت ميلاني بهدوء:

ـ لقد أعجب السيدة هاڤري.. وتأكدت من أنه تماماً كما وصفته أنا بالضبط.. شاب عادي لطيف.

ـ يا إلهي! كيف تجرؤين على عصيان أوامري؟ قلت لك..

ـ أنت لم تلتقيه. ولو فعلت، لكنت أعجبت به.

ـ أنا واثق أنه لن يعجبني.

ـ هذا لأنك لا تنوي محاولة الإعجاب به.

صاح وقد ضاق ذرعاً:

ـ أنت محقة تماماً بأنني لن أحاول.

ـ لكن هذا قصر نظر منك.

ـ قصر..

وسكت لا يستطيع الكلام، فأكملت:

ـ لا يمكنك سجن ستيلا.. قلت لك هذا منذ أول يوم التقينا فيه.. إنه القرن العشرين.. ستبلغ ستيلا قريباً سن الرشد، ولن تتمكن من إجبارها على شيء.. فلماذا تدفعها إلى التمرد في وقت يمكن أن تصادقها؟ أنت والدها، أقرب قريب لها، وأظنها تحبك، لكن إذا بقيت تتصرف معها بالطريقة ذاتها، فسينتهي بك الأمر لأن تصبح غريباً عن ابنتك.

تحرك بقلق.. ثم سأل:

ـ من هم هؤلاء على أي حال؟

ـ جان بول تريكارد يملك فندقاً ويقوم بعدة أعمال أخرى.

التقطت نظرة الازدراء في عينيه فأكملت:

ـ لا.. ليس ثرياً.. أهذا هو دافعك الرئيسي للحكم على الناس؟

ـ بالطبع لا. لكن بإمكانك فهم أن ابنتي ستصبح امرأة ثرية جداً في يوم ما.. ويجب حمايتها.

ـ أفهم هذا.. وأعتقد أنك تأخذ الأمر بجدية أكثر من اللازم.. إنها معجبة برينيه.. لكنها في السادسة عشرة من عمرها، أصغر بكثير من أن

حرب الغزا

يعني هذا لها شيئاً، إنهما صديقان، وهذا كل شيء..

سألها بعدائية باردة:

ـ لماذا تشجعينها؟ ربما لك أسبابك الخاصة؟

ـ ماذا تعني؟

ـ ما مدى اهتمامك بالعم..؟

نظرت إليه، والمكر في عينيها:

ـ يعجبني.. إنه رجل لطيف جداً. وهو مثلك، يعمل بجهد.. لكنه يملك ميلاً رومانسياً..

كانت تفكر برد فعل جان بول أمام كاتدرائية «شارتر» وإعجابه وحفظه لتاريخ ذلك المكان.. لكن جوليانوس كان يسيء فهمها تماماً.. فثبّت عينيه عليها بقسوة والتوى فمه بسخرية.

ـ آه.. إنه رومانسي جداً.. أليس كذلك؟ كان يجب أن أعرف أنك تستغلين ستيلا لتحقيق مآربك.

ثارت ميلاني، وراحت تنظر إليه بكراهية:

ـ أنا لا أفعل شيئاً كهذا!

ـ لا؟ أليس كل ما يجري لهذا السبب؟ أنت تستهوين العم، فترمين ستيلا في ذراعي ابن أخيه؟

ـ إن تفكيرك لقذر.

ـ سيدتي! دماغي يعمل جيداً جداً بحيث لن تتمكني من خداعي بسهولة.

ـ أنا لا أحاول خداعك.. لقد أخبرتك الحقيقة بالضبط، وإذا لم تصدقني، فهذه مشكلتك.

سألها بازدراء:

ـ هل أخبرك ما هي الحقيقة؟

لم ترد ميلاني عليه بل التقت نظرته دون أن يرف جفنها.. لم ترغب في أن تسمع وجهة نظره.. لأن كلامه، مما لا شك فيه، سيكون قاسياً

ومؤلماً.. رغم يقينها بأنها لن تتمكن من منعه عن الكلام.

أحاط وجهها بكفيه ورفع رأسها نحوه، وقال ببرود:

ـ الحقيقة أنك امرأة.. وهذا يجعلك كاذبة، مخادعة، مزعجة باردة الدم، تتمتعين بإيصال الرجل إلى حافة الجنون، ثم تراقبينه يهوي، قبل أن تتركيه بابتسامة حلوة، راضية.

لم تستطع ميلاني أن تحرك رأسها، لدرجة أن نبضاتها كانت تضرب تحت أصابعه، وهي تراقبه، وترى الجنون في عينيه.

كان لغضبه، جذور أكثر تعقيداً مما تستطيع أن تفهمه.. هناك إحساس خاص بالعدائية نحوها، لأنها رفضته ليلة أمس.. لكن، كان هناك كذلك ذكرى تجاربه الماضية مع النساء المكبوتة في نفسه ابتداءاً بوالدته ومن ثم.. لا يحب جوليانوس النساء ولا يثق بهن.. لقد تعلم كيف يسحرهن، يمازحهن، يعبث معهن.. لكن في أعماق ذاته، كان يحس بالمرارة والعدوانية نحوهن.

قالت له بصوت منخفض:

ـ أنا آسفة لما حدث ليلة أمس.

عاد الاحمرار يتسلل إلى وجهه:

ـ أوه.. أنا واثق من أسفك.. وواثق من أنك أرضيت غرورك.

ردت باضطراب:

ـ لم أود أن نتمادى إلى ذلك الحد.

كانت تزيده غضباً بدلاً من أن تهدئه، فقد اختارت كلماتها بشكل أخرق.. وسألها غاضباً:

ـ إلى ذلك الحد، ليس أبعد؟ أهذه هي طريقتك؟

ـ أنا لست معتادة..

قاطعها بحدة:

ـ لست معتادة؟

هزت رأسها:

ـ سيد بيلانوس . . أدرك أنك غاضب مني . .

تمتم :

ـ هذا بعد نظر منك!

ـ لكنني لم أكن أقصد ما حدث . . لم أكن أنوي . .

ـ التورط في هذا؟

تنهدت :

ـ لا تنسب إليّ ما لم أنوي قوله أو فعله .

حدقت عيناه بشفتيها الورديتين فأحست بنبضات قلبها تتسارع .

قالت بسرعة :

ـ طلبت مني الاعتناء بستيلا وشؤونها . . وأنا أبذل بحرص شديد كل ما بوسعي . . وقد لا توافق على طريقتي . .

ودون أن تترك عيناه شفتيها ، رد باقتضاب :

ـ أنا غير موافق .

ـ طلبت منك أن تثق بي .

رفع رأسه لينظر في عينيها ، بابتسامة واهية :

ـ أنا لم أثق بامرأة يوماً .

حاولت جاهدة استجماع الكلام في ذهنها فقالت :

ـ إذا كنت لا تريد أن تجعل من ستيلا عدوة لك ، يجب أن تثق بها . . أن تجعلها تتصرف بحرية .

سأل بنفاذ صبر :

ـ حرة أن تجعل من نفسها حمقاء؟

ابتسمت ميلاني وكأنها تتوسل :

ـ هذا ما أخشاه .

هز رأسه :

ـ هذا أمر غير وارد .

تنهدت :

ـ صدقني ، سيد بيلانوس ، ليس هناك من طريقة أخرى . . لا أحد يتعلم من أخطاء الآخرين . . نحن نتعلم فقط من أخطائنا .

تغيرت تعابير وجهه :

ـ إنها صغيرة جداً لأن أسمح لها بارتكاب الأخطاء .

ردت بهدوء :

ـ إنها الأخطاء الوحيدة التي ستقتنع بها . . لن تصغي إليك بأخطائك .

التقت عيونهما ، وكان في عينيه دهشة ، وقالت ميلاني ، بغيظ وعيناها تمازحانه :

ـ هذا إذا كنت ارتكبت الأخطاء . . لأنني واثقة أنك لا تخطىء .

ـ أوه . . هل أنت واثقة فعلاً؟

ـ مهما كانت أخطاؤك ، فلن تعتبر ستيلا أن فيها درساً لها . . وإذا حاولت أن تقول لها فستسخر منك ، ولن تصغي إليك . . كل ما تعرفه هو الحاضر ، وما يحدث لها الآن ، وإن كان هذا يغضبك . . يجب أن تتركها تكتشف الحياة بنفسها .

تركها ليسير مبتعداً ، بمشية قلقة متسائلة يداه في جيبي بنطاله ، محني الرأس . راقبته ميلاني منتظرة ، متساءلة ، ما الذي يجري داخل دماغه الغريب .

استدار فجأة ليقول لها :

ـ من الأفضل أن ألتقي به شخصياً .

ابتسمت : فكرة جيدة .

التفت إليها بسخرية :

ـ لقد توقعت أن ذلك سيعجبك . . لكن ، دعيني أوضح لك ، أن هذا لا يعني أنني موافق على خروج ابنتي مع شاب . لأنها في رأيي صغيرة جداً على القيام بمثل هذه الأمور .

ـ هي صغيرة بالطبع .

ـ لماذا تشجعينها إذن؟

ـ لا يمكنك إغلاق باب الإسطبل بعد أن ينطلق الجواد. . تظن ستيلا أنها أصبحت كبيرة، ولن تستطيع إقناعها العكس في مرحلة متأخرة.

قال بهدوء:

ـ حاولي النظر إلى المسألة من وجهة نظري. . إنها ابنتي، وأنا مسؤول عنها، ولا أريدها أن تدمر حياتها قبل أن تعرف بالضبط حقيقة ما تفعل.

ـ أفهم هذا. وإذا أبقينا المراقبة خفيفة، فأنا واثقة من أننا ستتمكن من توجيهها في الاتجاه الصحيح، دون الكثير من المشاحنات. . لكن هذا سيتطلب الكثير من الصبر واللباقة.

نظر إليها مفكراً:

ـ ولديك الصبر واللباقة؟

لم ترد، لكن عيناها الزرقاوان كانتا تبتسمان، فأكمل ساخراً:

ـ لعله يمكنني القول بأنك تتمتعين بقدر وافٍ من المكر الأنثوي.

ردت برزانة:

ـ شكراً لك.

ضحك، لكن الابتسامة تركت عينيه:

ـ لكن، لا تتصوري للحظة أنني قد نسيت كيف هربت مني ليلة أمس، فأنا لم أنسَ.

كادت تقفز لرؤيتها وجهه المتجهم. لكنه تابع النظر إليها بعينين قلقتين ثم رسم ابتسامة واهية على فمه وقال:

ـ أنا لا أنسى ديناً. . وأنت مدينة لي بشيء الآن.

صاحت مضطربة مرتجفة:

ـ أنا لا أدين لك بشيء. . وآسفة إذا كنت قد ضللتك.

ـ لم تضللينني. . بل كنت تدركين تماماً ما أنت فاعلة.

ـ لا!

ـ أوه. . بلى. . كنت تقودينني متعمدة في طريق جميل، وأنا واثق من هذا. . لكن ما لست واثقاً منه هو لماذا. . قد يكون هناك عدة أسباب. .

فقد تكونين من النوع الذي يحب الملاحقة المطولة قبل الاستسلام. أو، من ناحية أخرى، قد تكونين من النوع الذي لا ينوي إبداء الاستسلام، لكنه يحب رؤية الرجل في حالة من الجنون.

تصلبت ميلاني ساخطة، وقالت له بغضب:

ـ وقد أكون من النوع الذي يطيح برأسك لو كلمتني هكذا!

تحرك بسرعة السوط، وقبض بقوة على ذراعيها خلفها، حتى أصبحت عاجزة عن مقاومته. انحبست أنفاسها للحظات ثم أخذت تلهث بسرعة، وعيناها متسعتان لشدة غضبها وذهولها. وقال بابتسامة ساخرة مرسومة على وجهه بعد أن توقفت عن التلوي بين يديه:

ـ مهما فعلت، لا تستهيني بي آنسة فرايزر. . لقد عرفت عن النساء ما لم يكتشفه معظم الرجال بعد. . أنا أكثر خبرة من أن أترك امرأة تخدعني وتنجو بفعلتها. كما قلت لك، لست أدري ما إذا كنت تحاولين أن تجعليني أهتم بك فأستمر في ملاحقتك، أم أنك تحصلين على لذة في تعذيبي. . لكنني أعدك. . أنني سأستمر في هذا حتى أعرف أي نوع من النساء هو أنت.

كانت بشرتها تحترق، وهي تحس بعينيه المتحديتين تتفرسان في وجهها.

ـ أتركني. . أرجوك. . أنت تفقدني صوابي.

لكنه استمتع بذلك فتراقصت الابتسامة في عينيه، وهمس:

ـ لقد أخفتني!

شد ذراعيها إلى ظهرها، وسأل بلؤم:

ـ والآن. . ماذا ستفعلين بي؟

نطلعت إليه بضعف غاضب.

ـ هل من المفترض أن يبرز هذا أنك أقوى مني؟ حسناً، لكن ما الذي يثبته هذا؟ من المؤكد أنه لن يدفعني إلى الإعجاب بك أكثر. . هل ترضي غرورك بمعاملتي بخشونة وأن تظهر لي أنني سأخسر أمامك إذا ما

تواجهنا؟ أعتقد أن هذا هو السبب الوحيد لغضبك مما حدث ليلة أمس، أليس كذلك؟ لقد جرحت كبرياءك حين قلت لك لا. حسناً.. أنا آسفة.. فأنا لم أكن أنوي أن أفعل هذا.. أدرك أنني لامست وتراً حساساً، لكنني أخشى أن تكون آراؤك بي بعيدة جداً عن الحقيقة. أنا لا أدعوك إلى ملاحقتي سيد بيلانوس، ولا أحاول أن أعذبك.. لقد أخبرتك الحقيقة المطلقة.. لكن أمر واحد قاد إلى آخر ليلة أمس دون أي تخطيط مسبق مني، وأنا آسفة.. لكن بالنسبة لي، أفضل أن ننسى ما حصل.

استمع جوليانوس إليها وعيناه تتطايران شرراً وحاجباه معقودان، بينما كانت كلماتها السريعة الغاضبة تتدفق.. حين صمتت مقطوعة الأنفاس، استمر ينظر إليها بينما وجهها يزداد حرارة، ونبضاتها تتسارع بشدة. بعد قليل، قال بصوت منخفض:

ـ عظيم.. السيدة ليست باردة كما تحب أن تظهر.

كان الرضى بادٍ على وجهها، وأحست بنفسها تسترخي، ترسم ابتسامة باردة على وجهها.. وقالت:

ـ آسفة.. لقد فقدت أعصابي، وهذا ما لا يحصل لي عادة.. أخشى أن تكون أنت المسبب لهذا، سيد بيلانوس.

ـ إذن فهذه واحدة بواحدة.. لأنك بكل تأكيد أثرتني.

قالت بإصرار:

ـ لم أكن أقصد ذلك.

هز كتفيه، لكنه تركها، وتحرك بعيداً.

ـ أنت مزيج مثير للاهتمام آنسة فرايزر.. من الخارج أنت رابطة الجأش، وقوية. لكن، هناك الكثير خلف هذا الوجه الهادىء.. أليس كذلك؟ ساورني الإحساس، بأنك لست كسواك من النساء؛ وهذا ما يجعلك فريدة من نوعك.. لم أظن يوماً أنني سألتقي امرأة مثلك.

ردت مبتسمة، وقد عاد لونها إلى طبيعته:

ـ الحياة مليئة بالمفاجآت.

رد ابتسامتها:

ـ أليست كذلك؟ أعطني رقم هاتف رينيه إذا كان معك. وسأتصل به لأدعوه إلى الشاي.

كتبت الرقم على ورقة وأعطتها له، وأخذت تراقبه يتجه نحو الهاتف.. قال وظهره إليها:

ـ سأدعو عمه كذلك.

قالت دون أن تفكر:

ـ عمه سيصطحبني إلى العشاء هذا المساء.

التفت ذا الرأس الأسود بحدة نحوها، وقد ضاقت عيناه، لكنه لم يعلق، فسارت نحو الباب وساقاها ترتجفان.

وجدت ستيلا جالسة على سريرها وقدماها عاريتان وشعرها الأسود يلمع بنعومة حول وجهها الشاحب.. حين رأت ميلاني قالت بصوت عال: ماذا قال؟ ما الذي حدث؟

ـ حدث الكثير.

ـ أكان غاضباً؟

ـ كلهيب النار!

تأوهت ستيلا.

ـ وهل سيضرب بقدمه الأرض ويمنعني عن رؤية رينيه؟

خلعت فستانها:

ـ وهل تفعلين إن طلب منك هذا؟

ردت بحسم قاطع:

ـ مستحيل.. لا يمكن أن يجبرني.. مهما فعل.

ابتسمت ميلاني، فيما كانت ستيلا تبحث بين كومة الملابس في الخزانة عما ترتديه.

ـ لحسن حظك لن تضطري للاختيار، فوالدك سيتصل الآن برينيه ليدعوه إلى هنا.

جثت ستيلا على ركبتيها:

ـ لا بد أنك تمزحين؟

ـ لا.

قفزت ستيلا عن السرير تحتضنها.

ـ أنت ساحرة.. إنها معجزة.. كيف فعلت هذا؟

ـ والدك ليس صعب الإقناع كما تظنين.

لم يبدُ الاقتناع على ستيلا، وهذا ليس بمستغرب أمام بربرية وجهه وهو يلاقيهما.. بدت نظرة ساخرة على الوجه الصغير:

ـ لا؟.. لا بد إذن وأن يكون هذا أحد أيامه الطيبة.

ـ إنه قلق عليك.

عضّت شفتها:

ـ لقد أدرك ذلك متأخراً، لم يقلق عليّ من قبل، فلماذا يقلق الآن؟

قالت بهدوء:

ـ ربما لم تفهميه من قبل. كنت طفلة. أما الآن وقد كبرت. فإنك بدأت ترينه بوضوح أكثر.

نظرت ستيلا إليها:

ـ صحيح؟ لكنني كنت أراه بوضوح من قبل.. وهو لم يهتم يوماً بما يحدث لي.

ردت بلطف:

ـ لكنه يهتم.. وليس من السهل إظهار اهتمامه، كما أنه رجل مشغول جداً.

صححت ستيلا لها معلوماتها:

ـ مشغول أكثر من أن يزعج نفسه ليهتم بي.

رفعت شعرها إلى الوراء وغادرت الغرفة بنفاذ صبر.

تنهدت ميلاني قائلة في نفسها إن ستيلا لا زالت طفلة. وغير مستقرة بعد.. ويستحيل الآن التنبؤ أي نوع من الشخصيات ستكون عليها، لكن

من الضروري قطعاً، إبعاد السحب من سماء حياتها كي لا تحجب النور عنها.

يمكن لهذا أن يحدث بسهولة.. لأنه سبق وأن حدث مع والدها.. حين أظلمت حياته وهو صغير بسبب خيانة أمه، وموت أبيه المبكر.. لذلك كبر ونفسه ممتلئة بالعدائية، وكراهية واهمة للنساء.. ذلك لأن العلاقات العائلية لا تؤثر فقط في تشكيل نفسية الطفل، بل أنها تضع الأساس لكل العلاقات التي تأتي فيما بعد.. لذلك لم تستبعد ميلاني إمكانية أن تتحكم تلك الأحاسيس المكبوتة بحياة رجل صلب وقوي الإرادة.

لقد قبلت الوظيفة، لتلهي نفسها إلى أن يحين الوقت وتعود إلى عالمها الحقيقي، إلى الحياة التي بنتها لنفسها. ومن الحري لها أن تبقي في ذاكرتها أن هذه الوظيفة هي مجرد نزهة قصيرة في عالم لا تنتمي له.. لقد تورطت عاطفياً مع ستيلا والسيدة هاثري؛ مشاعرها نحوهما دافئة مهتمة. لكنها أكثر خطراً بالنسبة لجوليانوس.. إنه رجل ناضج.. وليحاول حل مشاكل عائلته وعلاقاتها المضطربة بنفسه.

كان الفستان الأبيض الذي اختارته يلتف بنعومة حول ساقيها النحيلين، وهي تسرع بعد ربع ساعة، لتمر أمام باب غرفة الجلوس، ويرتد طرفها إلى الداخل. كان جوليانوس يقف عند النافذة ينظر إلى سماء ليل باريس، لكنه استدار نحوها.. وقف بطريقة عفوية في بذلة المساء، وكتفاه مستقيمان تحت سترته الناعمة، وراح يتأملها.

أحست ميلاني باللون الأحمر الساخن يزحف إلى وجهها تحت تقييمه الساخر الوقح.. وغضبت من نفسها، إذ أن لديها خبرة سنوات تجعلها تتمكن من الحفاظ على هدوء أعصابها وتساعدها على إخفاء ردة فعلها ولم يعجبها أن تعترف لنفسها بأن نظراته كانت تبعث في نفسها القشعريرة.

تمتم بصوت أجش:

ـ أتشربين شيئاً؟

ـ لا مانع لدي.

حولت نظرها عنه، وجلست بهدوء وهي تضع ساقاً فوق الأخرى..

تقدم نحوها ليعطيها الكأس، وأحست بنبضات قلبها تتسارع مجدداً حين لامست أصابعه الباردة يدها.

لم يجلس، بل بقي واقفاً ينظر إليها، وكأسه في يده يرتشف الشراب:

ـ هل قلت لستيلا؟

هزت رأسها مبتسمة.. فسأل بسخرية:

ـ ابتهجت.. أليس كذلك؟

ـ يمكنك قول هذا.

بدا عليه الخبث:

ـ أرجو أن لا يفسر هذا كموافقة مني.

ردت ساخرة:

ـ أنا واثقة من أنه يرتجف الآن.

نظر إليها شزراً، وتمتم:

ـ قد أصاب بالإدمان على هذا..

نظرت إليه بحيرة:

ـ على ماذا؟

ـ على طريقة ابتسامتك.

عاد المد الأحمر يلوّن وجهها.. فأشاحت بوجهها قائلة:

ـ أنا واثقة من أنه سيعجبك.. إذ لا يوجد ما يستحق كرهك له.

ـ أوه.. تملين عليّ الأوامر؟ عليك أن تعجب به وإلا؟

ـ لا شيء من هذا.. قابله فقط بتفكير منفتح.

ـ هذا أكثر مما تفعله ستيلا مع أصدقائي، خاصة الإناث منهن.. إنها في العادة تحتقرهن.

تغضنت جبهتها:

ـ صحيح؟ إنها الغيرة على ما أعتقد.. وهذا لا يدهشني.

رن جرس الباب.. وضع كأسه من يده، وتحرك إلى الباب بينما كانت مدبرة المنزل ترد.. جلست ميلاني وكأسها في يدها تصغي إلى جوليانوس يتحدث بهدوء وأدب.

كان على وجه رينيه ابتسامة قلقة حذرة وعيناه مرتبكتان، هز رأسه لميلاني وقال:

ـ مساء الخير.

تقدم جان بول بهدوء ليجلس قربها، يبتسم لها ساخراً.. لأنه يفهم تماماً ما يحدث.

صب جوليانوس كأس عصير مثلجة لكل منهما، دخلت ستيلا بسرعة إلى الغرفة، مشرقة قلقة. ثم توقفت لرؤية أبيها، ولاحظت ميلاني نظرة القلق التي أطلقتها نحوه. راقبها جوليانوس دون كلام، وانفتح فم ستيلا، وعادت تلك النظرة القديمة إلى وجهها؛ فهي تبدو بشعة حين تعبس، ويبرز شحوب بشرتها وسواد عينيها هزال جسدها وصغر وجهها. لكنها حين تتحرك، يمكن لقسمات وجهها أن تأخذ دفئاً حيوياً وإثارة تغيّر كل مظهرها.

سألها جوليانوس وهو يصب عصير البرتقال مع القليل من الصودا لها:

ـ ما رأيك «بشارتر»؟

أخذت الكأس منه، وأصابعها مشدودة عليه: جميلة.

فنظر إليها نظرة حادة، ثم التفت إلى رينيه وسأله:

ـ هل زرتها من قبل، أم أن هذه هي المرة الأولى؟

رد رينيه متوتراً، يجلس إلى حافة كرسيه:

ـ زرتها من قبل.

بدا لميلاني وكأنه في الثانية عشرة، ولا يمكن أن يكون له تأثير سيء على ستيلا.. بل على العكس، من المحتمل أن يكون لها تأثير عليه..

أكمل رينيه بحماس: إنها رائعة.

قال جان بول ساخراً:

ـ خاصة من الخارج.

وجه رينيه إليه نظرات حادة.. فسأل جوليانوس يقطب حاجبيه:

ـ من الخارج؟

قال جان بول:

ـ لم يدخلاها.

نظر جوليانوس إلى ستيلا، التي احمرّ وجهها أكثر، ونظرت إلى جان بول وعيناها عدائيتان:

ـ تفرجنا جيداً على الزجاج المزركش والأبراج الدقيقة، إضافة إلى المنحوتات. لقد بدا كل ذلك رائعاً.

قاطعتها ميلاني:

ـ لقد ذهلت بالزجاج المزركش.

وطفقت تتحدث عن الأشياء التي تتذكرها كثيراً.. وتعمدت أن تطيل في حديثها كي يبتعد الاهتمام عن وجه ستيلا الغاضب.. ثم أضافت:

ـ لكن، ما سأتذكره أكثر من أي شيء آخر، هو أول نظرة لي للكاتدرائية ونحن نتقدم نحوها.. كان منظراً رائعاً.

ابتسم جان بول لها:

ـ إنه منظر جميل جداً.

ابتسمت له، ثم نظرت إلى جوليانوس الذي لم يكن وجهه مقروءاً. لكنها لسبب ما أحست بقلق. سأل جوليانوس رينيه.

ـ فهمت أن والديك في عطلة؟

ـ إنهما في الجزائر.

ـ كم سيغيبان؟

ـ ثلاثة أسابيع.

رفع حاجبيه بدهشة ساخرة:

ـ أبقياك هنا؟

فرد برزانة: لم أرغب في الذهاب.. سأذهب في عطلة للتخييم مع أصدقاء لي خلال هذا الصيف.. أفضل أن أمضي أيام العطلة لوحدي هذه الأيام.

وكبحت ميلاني ابتسامتها. قالت ستيلا وعيناها تتحديان والدها: فكرة رائعة.

تمتم جوليانوس:

ـ وأنت مقيم مع عمك؟

هز رينيه رأسه، وراقبه جان بول مبتسماً.. ثم أدار جوليانوس رأسه ببطء ينظر إليه ويسأله:

ـ قيل لي إنك في العمل الفندقي؟

وافق جان بول بخشونة، فأردف جوليانوس:

ـ أملك بضع فنادق بنفسي.

رد جان بول بخشونة أكثر أنه يعرف هذا، وسمى له فندقاً شهيراً في باريس، وأردف:

ـ أخشى أن يكون هذا بعيد عن مستواي.

ابتسم جوليانوس:

ـ إنه فندق جيد جداً.

نظر جان بول إلى ساعته، ثم ابتسم لميلاني قائلاً:

ـ إذا كنا سنخرج للعشاء، فأخشى أن نكون مضطرين للذهاب الآن.

وقفت، تضع كأسها على الطاولة الصغيرة.. ووقف رينيه كذلك محمر الوجه فنظر جوليانوس إليه:

ـ ألن تشاركني وستيلا طعام العشاء؟

بدا القلق على رينيه، لكن ستيلا شدته من يده إلى مقعده.. وقالت بثقة:

ـ سيحب هذا.

توجه جان بول وميلاني إلى الباب يرافقهما جوليانوس كظلهما.. كان في تصرفه عدائية لجان بول، إذا لم نقل لميلاني، مما دفع جان بول للقول بهمس:

ـ لا أفهم لماذا ينظر إليّ هكذا..!

لم يسمع جوليانوس ما قاله، لكنه عرف أن تعليقاً ما قد تم همساً.. وأصبح عبوسه خطيراً وهو يفتح الباب لهما. نظرت إليه بطرف عينها، وتلقت نظرة جعلتها تشهق. وقال لها:

ـ لا تتأخري.

ثم صفق الباب بقوة، ولم تكن ميلاني على ثقة ما إذا كان ذلك متعمداً أم لا. صفّر جان بول بصوت منخفض وقال:

ـ إنه لا يطيقني وهذا غريب.. يمكن أن أفهم شكه برينيه لكن لماذا يوجه إليّ نظرات حادة كالخناجر؟

ـ أنت عمه.

ـ وهو يشك في كل من يقترب من ابنته؟ ربما أنت محقة.. أفهم وجهة نظره.. إنها وريثة ولا زالت صغيرة.. كنت لأتصرف بالطريقة ذاتها لو كنت والدها.

سألته بدهشة: صحيح؟

ـ طبعاً.. لأنه من السهل أن يهرب شخص عديم الضمير معها.. أرأيت كم كان سهلاً على رينيه كسب ودها. إنها بريئة جداً، وتثق بالناس.. وأنت كذلك، وإلا لما سمحت لهذا أن يحدث.

وابتسم لها، فقالت:

ـ حاولت منعه.

ـ صحيح.. لكن ليس بطريقة حازمة.

ـ لم تبدُ لي خطيراً.

ضحك:

ـ شكراً لك، أرجو أن يكون هذا إطراء لي.. مع أن ما من رجل

يعجبه أن لا يبدو خطيراً.

ـ أوه.. أتريد أن تبدو خطيراً إذن؟

ـ سيكون هذا إرضاء لغروري.. أعتقد أنه يكمن داخل معظم الرجال «دون جوان» ينتظر فرصة للظهور.

ـ لم أفكر كثيراً بدون جوان.. فقد كان شخصاً مملاً، من وجهة نظري. وهو ليس بالبطل الرومانسي أبداً.. ليس لديه مشاعر، والبطل يجب أن يكون له فيض من المشاعر إذا أراد أن يكون رومانسياً حقاً.

قال لها وهما في السيارة:

ـ أعتقد أننا سنكون من البوهيميين الليلة.. سنتناول العشاء في الحي اللاتيني.

ـ يبدو هذا رائعاً.

ـ الطعام هناك لذيذ.. والأجواء المحيطة هي مزيج لعدة نماذج بشرية، مما سيعطيك نظرة جديدة إلى باريس.

عندما وصلا المطعم الصغير كانت ميلاني شديدة الاحمرار، ساخطة من اللطمات التي تلقتها وهي على الطريق، فالشوارع الضيقة القذرة كانت مكتظة بالناس، وكلما مرت برجل كان يبتسم لها وكأنه يدعوها إليه، ويتمتم بالإطراء بلغة أو أخرى.

كان جان بول ينجح على الدوام بإبعادهم عنها بكلمة أو كلمتين حادتين، لكن كان هناك الكثير منهم ويحومون كالنحل حول العسل ما إن يشاهدوا شعرها الأشقر وجسدها النحيل الجميل. وقال ممازحاً:

ـ أخشى أنك تدفعين ثمن جمالك.. أتريدين أن ألكم الرجل التالي على أنفه؟

ـ لا تزعج نفسك.

لكنها تأوهت حين أخذت مجموعة من الشبان تتحرش بها، وصاحت بهم «اغربوا عن وجهي» فضحكوا، وتابعوا سيرهم.

ضحك جان بول:

ـ هذا مؤثر جداً . . لقد التقطت اللغة بسرعة .

ـ لكن هذا ما كنت تقوله لهم باستمرار . أليس كذلك؟

ـ صحيح . . وستجدينها جملة مفيدة . . ها قد وصلنا .

ثم مرّا عبر مدخل ضيق معتم .

نظرت ميلاني إلى الداخل المعتم حيث كانت أضواء الشموع تتراقص على الطاولات . . وعازف الغيتار يعزف بصخب عند الزاوية، ومزيج من الأصوات يعلو المكان، والوجوه محدقة بهما . . سألها :

ـ هل أعجبك؟

ضحكت :

ـ إنه . . ساحر .

ـ هناك مأخذ واحد على المكان وهو أنه مظلم حتى أنك لا ترين ما تأكلينه . . وهذا أفضل . طالما الطعام لذيذ المذاق، فماذا يهم منظره؟

جيء إليهما بالطعام على صواني خشبية واسعة، وعرفت ميلاني أنها لن تتمكن من تناول نصف هذه الكمية الكبيرة من اللحم والسلطة والأرز والبطاطس المشوية . كان الطعام لذيذاً جداً، والجو في المطعم الصغير، جعل من الأكل أمر ممتع .

سارا بعد ذلك معاً عبر ساحة الحيّ اللاتيني مجدداً ثم إلى «نوتردام» حيث دخلت إلى مكتبة لبيع الكتب الإنكليزية قرب نهر السين لتفتش في الرفوف المكتظة بالكتب، قبل أن يعاودوا التمشي قرب ضفاف النهر .

وقفا على الجسر ليتطلعا إلى المياه السوداء الراكدة كالزيت لنهر السين . . كان هناك أناس يجلسون على مقاعد خشبية مثبتة على ضفتي النهر . . وتهادى قارب ببطء تحت الجسر تتلألأ أنواره على صفحة الماء . .

كان الهواء سلساً دافئاً رغم تأخر الوقت . أكملا السير نحو واجهة «نوتردام»، حيث صفوف التماثيل تحدق بالحياة دونما اكتراث .

هناك أمام الكاتدرائية كان هناك تدفق مستمر من السواح، يتجولون ويتحدثون وآخرون يغنون، مجتمعين حول شاب ملتحي يرتدي الجينز الممزق ويعزف الغيتار، وكانت مجموعة صغيرة تتفرج على الحركات الرشيقة لممثل إيمائي أبيض الوجه في قبعة سوداء مستديرة وثياب البهلوان . وكان هناك بعض الأطفال يلعبون الكرة، ويتناثر هنا وهناك عشاق يتهامسون ويتعانقون . نظرت ميلاني حولها مبتسمة . . وبدا لها أن باريس تعيش في الشوارع، وكأن كل يوم هو عبارة عن حفلة كبيرة، اجتماع حاشد لا يحسب حساب الوقت .

استدارت إلى جان بول بعينين برّاقتين قائلة :

ـ أحب باريس . .

وتبادلا الابتسام .

* * *

٨ ـ لا أريد حمايتك

لو أنهما أنهيا أمسيتهما هناك، لكان كل شيء على ما يرام. لكنهما خلال تجولهما على ضفاف السين سمعا صوت موسيقى مصدره مقهى رصيف فقال جان بول:

ـ هل نتناول شراباً أخيراً؟

ترددت ميلاني، لكنه أمسك يدها وجرها عبر الشارع. كان المقهى مزدحماً، ولم تشعر ميلاني بمرور الوقت، قبل أن تتطلع إلى ساعتها وتتأوه بدهشة:

ـ إنها الثانية!

لم يبدُ جان بول مهتماً لذلك لكنه نظر إلى عينيها القلقتين وسأل:

ـ صحيح؟ ما بك؟

تمتمت:

ـ ليس معي مفتاح للشقة!

أدركت أنها أمام مشكلة خطيرة.. لماذا تركت الوقت يمرّ هكذا؟ ما الذي ستفعله؟ من المؤكد أن الجميع نيام في مثل هذه الساعة:

ـ سأضطر لإيقاظ من يفتح لي الباب. سأدق الجرس، وسيستيقظ الجميع!

أدى بها التفكير بردة الفعل من جوليانوس إلى الإحساس بالذعر لأنه سيكون غاضباً جداً. أمسك جان بول ذراعها، بيد ثابتة:

ـ المشكلة بسيطة، ستمضين الليل معنا.

نظرت إليه بقلق، فابتسم لها:

ـ لا داعي لتنظري إليّ هكذا، رينيه يسكن معي ولن تجدي نفسك لوحدك في شقة مع مستهتر.

ترددت للحظة مدركة أنه على حق.. فهذا بكل تأكيد سيحل المشكلة الآتية.. لكن، لديها إحساس قوي بأنها لو أمضت الليل مع جان بول، فستخلق المزيد من المشاكل، لحظة يعرف جوليانوس أنها لم تعد، وأنها أمضت الليل في شقة جان بول.

هزت رأسها على مضض:

ـ شكراً لك جان بول، لكن يجب أن أعود إلى الشقة وأخاطر ولو بقطع رأسي على يد السيد بيلانوس.

نظر إليها جان بول متفهماً:

ـ كما تشائين.. إنها جنازتك.

ضحكت:

ـ لا تقل هذا.. فلدي ارتياب شديد أن تكهنك قد يكون مصيباً.

ـ لماذا المخاطرة إذن؟

ـ سيكون الموقف أسوأ إذا لم أذهب.

وهما عائدان، صاح فجأة:

ـ حارسة المبنى!

سألته بحيرة:

ـ ماذا؟

ـ لا بد أن لديها مفتاح.. لماذا لم أفكر بهذا من قبل؟

قالت بهدوء:

ـ بالطبع لديها مفتاح.

كان لحارسة المبنى شقة صغيرة في الطابق الأرضي.

ـ لكنني أتوقع أن تكون نائمة.

ـ أوه.. لا شك في هذا.. لكننا سنتغلب على هذا.

كانت حارسة المبنى منزعجة حين فتحت الباب . . إنها امرأة قصيرة سوداء بوجه مترهل وشعر متجعد قصير، وقفت تربط شريط روبها حولها بيد واحدة، وتنظر إليهما بغضب، ثم سألت بالفرنسية:

ـ ماذا تريدان؟ ولماذا أيقظتماني في مثل هذه الساعة . .

توقفت عن الثرثرة بمجرد تلويح جان بول لها بقطعة نقدية كبيرة . . راقبتها تروح وتجيء تحت أنفها للحظات، ثم نظرت إليه وسألت بغضب أقل:

ـ نعم . . سيد . . ؟

شرح لها الموقف، فنظرت إلى ميلاني عن كثب.

ـ آه . . أجل . . أنت تقيمين مع السيدة هاڤري . . انتظري قليلاً.

غابت للحظات ثم عادت تحمل مفتاحاً في يدها.

ـ سأدخلك الشقة بنفسي آنستي.

صعد جان بول معهما في المصعد، وتثاءبت حارسة المبنى عدة مرات، تضع يدها على فمها وقالت:

ـ أيقظتماني من النوم . . كان يومي طويلاً متعباً، أتعرفان هذا!

كانت ميلاني تحس بالتعب والنعاس، فيما كانت المرأة لا تزال مستمرة في حديثها، وجان بول يعلق مهدئاً، حتى صمتت حين وصلوا الشقة ففتحت المرأة الباب، وانحنت لهما، أعطاها جان بول المال، وتمنت لهما ليلة سعيدة، وانصرفت.

نظر جان بول إلى ميلاني مبتسماً:

ـ هاك . . أرأيت؟ أمر سهل، أليس كذلك؟

ابتسمت له:

ـ شكراً لك، أنا ممتنة جداً.

أمسك يدها وقبلها ثم قال:

ـ ليلة سعيدة ميلاني.

دخلت الشقة، وأقفلت الباب وراءها . . كانت كل الغرف مظلمة . .

وبدأت تتسلل إلى غرفتها على رؤوس أصابع قدميها. لكن مصباحاً أضاء فجأة وجعلها تجفل مذعورة. استدارت ويدها على فمها، لتجد جوليانوس يستند إلى باب غرفة الجلوس، مكتوف اليدين مقطب الجبين. فهمست بذهول: أوه . .

ـ كم هو الوقت الآن؟

كان لصوته وقع عميق بارد، وعيناه محدقتان بها . . تمتمت بعد أن علا وجهها الاحمرار الشديد:

ـ لم نشعر بمرور الوقت.

راح ينظر إلى شعرها الذي شعثه هواء الصيف، والاحمرار، والتوتر، فارتجفت، وشعرت بالحرج لمعرفتها ما يدور في ذهنه تماماً.

ـ هل أمضيتما أمسية رائعة؟

ردت متحدية: أجل.

إنها لم ترتكب خطأً. فلا يحق له أن ينظر إليها بمثل هذا الازدراء، والبرود . . لكنه رب عملها، ووجدت نفسها مضطرة لأن تضيف:

ـ آسفة لتأخري . . وأرجو أن لا تكون قد انتظرتني.

ـ كنت أنتظرك . . تعالي إلى هنا، أريد أن أكلمك.

ترددت:

ـ الوقت متأخر.

التفت إليها وقال بحدة:

ـ أعرف هذا.

ـ ألا يمكنك الانتظار حتى الصباح؟

ـ لا . . لا يمكنني الانتظار.

استدار ليعود إلى داخل غرفة الجلوس، لتلحق به ميلاني بعد لحظات متوترة.

قال:

ـ حسناً . . ما تظنين نفسك فاعلة، وأنت تعودين في مثل هذه الساعة،

وتزعجين حارسة المبنى لتدخلك إلى الشقة؟

ـ أنا آسفة..

قاطعها بحدة:

ـ أنا واثق من أنك آسفة، آسفة لأنني مستيقظ لأعرف ماذا يجري! كنت على وشك أن أخرج لأمزق أضلاع جان بول لكنني ما كنت لأفتعل فضيحة أمام تلك المرأة السوقية.

عضت ميلاني شفتها:

ـ أنا ممتنة لأنك لم تفعل.. وأعتذر مجدداً لتسببي ببقائك مستيقظاً تنتظرني.. لكنني قادرة تماماً على حماية نفسي..

ـ بما أنك تعيشين تحت سقف بيتي، فأنا مسؤول عنك.

ـ أقدّر لك اهتمامك. لكن، اعذرني إن قلت إنني مسؤولة عن نفسي سيد بيلانوس.. الشخص الوحيد المسؤول أنت عنه هنا هو ستيلا.

تقدم نحوها:

ـ أهذا نوع من التحدي؟ أتظنين أنني لا أعرف ماذا يدور داخل رأسك هذا؟ منذ يوم دخلت مكتبي، ونظرت إليّ بهاتين العينين الزرقاوين، أوضحت لي أنك لا تعتقدين أنني أب صالح.

نظرت إليه بهدوء، دون أن ترد. وهذا ما أثار غضبه أكثر، فسألها بشراسة ووجهه متجهم:

ـ ما الذي يعطيك الحق بأن تحكمي عليّ؟

سألته بنعومة:

ـ وما الذي يعطيك الحق أن تصرخ في وجهي لأنني سهرت حتى الثانية صباحاً مع صديق؟

التقى حاجباه في خط أسود غير مستوٍ.

ـ هذا أمر مختلف.

ـ بالطبع مختلف.

تابع بالحدة ذاتها:

ـ ولا تحاولي أن تتذاكي.. أنت تعيشين تحت سقف بيتي، وأنت امرأة وحيدة في مدينة غريبة.. ولي كل الحق أن أتأكد من سلامتك.. أي نوع من أرباب العمل أكون إذا لم أفعل؟

ـ وهل هو جزء من دورك كرب عمل لي أن تراقب تحركاتي؟

نظر إليها ووجهه غاضب، متردد؛ وكأنه غير واثق تماماً كيف يرد. ثم دفع يديه إلى جيبي بنطاله، وأخذ يتأرجح على عقبيه بطريقة من نفذ صبره. تمتم بعد لحظات:

ـ الله يعرف السبب.. لكنني كنت قلقاً عليك.

رفعت نظرها إليه بدهشة، غير مصدقة.. كأن احمرار خفيف قد بدأ يتسلل إلى وجهه.. ثم انفجر يقول:

ـ انظري إلى نفسك جيداً في المرآة.. كنت محبوسة بأمان داخل مستشفى منذ أن تركت المدرسة.. أتظنين أن هذا لا يظهر على وجهك؟ لك وجه راهبة: هادئة باردة شفافة ككوب ماء، خبرتك مع الرجال شبه معدومة.. لا أشك أنك فتاة ذكية وبارعة في عملها، لكن عدا هذا، أنت لا زلت عذراء صغيرة محتشمة.

أخذ اللون القرمزي القاتم يطغى على وجهها.. وتنفست مرتجفة، مشيحة بوجهها عنه. وسمعته يضحك بغضب:

ـ أنت هكذا.. ألست كذلك؟ حين حاولت العبث معك تلك الليلة هربت مني، لأنني أخفتك بقساوة.. وهناك سبب واحد يدعوك إلى الخوف، إذا لم تكوني قد تصرفت بنية معينة.

ردت بصوت أجش:

ـ ظننتك قد صدقت أنني أتصرف بطريقة محسوبة.

فعلق متنهداً:

ـ أجل.. وأنا آسف.. لم أكن أعني ما قلته. كنت غاضباً.

فأعادت النظر إليه وقالت:

ـ أذكر هذا.

ـ حين هدأت، ندمت.

ابتسمت له، وقالت بصوت مرح:

ـ اعتذارك مقبول.. وكنت آمنة مع جان بول.. إنه رجل لطيف جداً.

فقال بقلق:

ـ أنت بريئة جداً لتكتشفي ذلك.. وهذه هي المشكلة.

ردت ببرود:

ـ أوه.. لا. عملت مع الكثير من الرجال لأعرف الرجل الباحث عن مغامرة حين أراه، بالرغم مما تظن أنك تقرأ في وجهي، أعرف كل الأساليب البارعة التي يستخدمها الرجال.. وسمعت كل الكلام القديم المبتذل.. أتظن حقاً أن كون الرجل طبيباً يجعله لا يفكر بالمرأة؟ بالعكس سيد بيلانوس، فالأطباء من البشر.

نظر إليها بعينين حزينتين:

ـ لكنني محق بما قدّرته عنك.. أليس كذلك؟

ارتبكت للحظات، تتابع النظر في عينيه، ثم أدركت ما عنى بقوله، وعاد اللون الأحمر يزحف مجدداً وجهها.. أيتوقع حقاً أن ترد على هذا السؤال؟

استدارت نحو الباب تقول بخشونة:

ـ ليلة سعيدة سيد بيلانوس.

أخذ يراقبها وهي تنسحب، لكنه لم يقل شيئاً، وتمكنت من الإفلات دون إعاقة، وتمكنت كذلك من الاسترخاء بعد إغلاق بابها، وأسندت ظهرها إليه في العتمة، وعيناها مغمضتان.

لن تكون مجنونة بما يكفي لأن تتورط مع جوليانوس بيلانوس.. حاولت إبعاد ذكرى عينيه الحارقتين وهما تحدقان بها.. تسارعت نبضاتها بقوة بالرغم من تصميمها أن لا تتأثر به.. لم تشعر يوماً بإغواء مثل هذا، ولا تنوي أن تشعر به الآن.

وبّخت نفسها بقسوة وهي تستعد للنوم. لكن النوم راوغها، فاستلقت

صاحية لأكثر من ساعة، تفكر باضطراب.

استيقظت متأخرة في الصباح، لتجد ستيلا تقرأ مجلة، وسألتها:

ـ مرحباً.. ماذا حدث لك؟ تبدين منهكة جداً! أكانت أمسيتك جيدة؟

ردت ميلاني ببرود:

ـ أجل.. شكراً لك.

ضحكت ستيلا:

ـ ماذا فعلتما؟ أوه.. أسحب سؤالي.. لم أسألك شيئاً.

ـ لا عليك.. سأذهب لآخذ بعض القهوة.

ذهبت إلى المطبخ وحضرت القهوة بنفسها لأن مدبرة المنزل لم تكن موجودة. حين عادت قالت لها ستيلا متكاسلة:

ـ سآخذ فنجاناً.

ـ أوه.. حقاً!

صبت لها فنجاناً وناولتها إياه وهي تسأل:

ـ كيف سارت الأمور خلال العشاء مع والدك؟ هل استمتع رينيه بوقته؟

ـ كان شديد الحذر طوال الأمسية، مسكين رينيه، كان مؤدباً إلى حد الألم.

نظرت ميلاني إليها متسائلة.. إذ كان في صوت ستيلا أثر الانحياز.. هل أعطاها خوفه من أبيها فكرة سيئة عنه؟ خطر لميلاني فكرة خبيثة بأن تكون ستيلا، تبحث عن رجل لا يهاب والدها، بل على العكس، يكون نداً له.. وليس من السهل إيجاد رجلٍ كهذا.

ظهرت السيدة هاثري بعد نصف ساعة، لتعلمهم أنها ستتناول الغداء في الخارج ولن تعود قبل وقت متأخر من بعد الظهر، ثم أكملت مبتسمة:

ـ جوليانوس سيقيم حفل عشاء هنا، ويريدك أن تكوني هنا ميلاني.

تأففت ستيلا:

ـ أوه.. لا! ليس كتلك الحفلات المتزمتة لبعض أصدقاءه في العمل؟

لا أستطيع تحملها!

ـ أرجوك أن تأتي . . قال لي إنه يتوقع أن يراك هنا .

ردت ستيلا بعبوس :

ـ بإمكانه أن يتوقع ما يشاء . . كل هؤلاء الرجال العجائز الصلع الرؤوس يضجرونني، يتحدثون فقط عن مستويات الفوائد، وتوقعات الاستثمار . . وهذا لا يعجبني . .

نظرت السيدة هاڤري إلى ميلاني، وعيناها تتوسلان المساعدة. ثم غادرت بعد أن تلقت ابتسامة مطمئنة منها . لكن ستيلا لاحظت الابتسامة، ونظرت إلى ميلاني بقلق، وقالت :

ـ لا تطلبي مني ذلك . . لن أحضر الحفلة .

ـ هل قلت كلمة؟

ـ ولا تتحذلقي . .

ـ إذا كنت لا تريدين الحضور، فلا تفعلي . . سأشرح الأمر لأبيك . . وأسوأ ما بمكنن أن يفعله، هو أن يطردني .

أحنت ستيلا رأسها إلى جانب واحد تنظر إليها متجهمة :

ـ أنت أكثر الناس . .

وصمتت، لا تجد الكلمات، فضحكت ميلاني، كشرت ستيلا عن أسنانها قائلة :

ـ أعطني خمس دقائق، وسأخرج بتصور مناسب . .

قالت ميلاني :

ـ على الأقل ستظلين برفقتي . . تذكري أنني قد أمرت بذلك .

تأففت ستيلا قائلة :

ـ ميلاني . . أنت لا تعرفينهم . . وحوش متحركة على قدمين . أرجوك، ليكن لديك رحمة، أعفني من الحضور .

قالت ميلاني بهدوء :

ـ حسناً . . ربما نستطيع التفكير بعذر يقبله والدك .

تستطيع فهم سبب رفض ستيلا للحضور . . فهي شخصياً لا تعجبها الفكرة . . وتساءلت ما إذا كانتا ستتمكنان من الادعاء بأن لديهما تذاكر لحضور الأوبرا لهذه الأمسية .

قررت ستيلا :

ـ سأدعي الصداع كالعادة .

نظرت إليها ميلاني بخشونة :

ـ يا له من ابتكار جديد!

ـ داء الشقيقة إذن . . لا . . هذا يبدو أسوأ . . سأضع بعض اللطخات السوداء حول عيني وأتظاهر بالمرض، فهذا سيقنعه .

ـ أنت متفائلة جداً .

لم تكن تتمنى أن تزعم مثل هذه القصة لجوليانوس . . لكنها قررت التأخر في الانضمام للضيوف إلى أن ينشغل تماماً بهم فلا يلاحظ غياب ستيلا، وهكذا تسللت، دون أن يراها أحد، إلى غرفة الاستقبال تنظر حولها بقلق .

كان الرجال جميعاً من أعلام عالم المال . ذوو وجوه لطيفة، وتصرفاتهم جيدة . . أما النساء فكن أنيقات تبتسم إحداهن للأخرى بثقة، لكن، تحت رموشهن المنخفضة، كن ينظرن إلى بعضهن نظرات مختلفة، بحدة الخنجر . بعد بضع دقائق، وجدت ميلاني نفسها تجلس على مقعد وكوب عصير في يدها، مهملة تماماً . . لكن هذا لم يزعجها . . بل كانت تتمتع بوقتها، وهي تراقب الجميع وكأنها غير مرئية، مما جعلها مرتاحة أكثر .

كان الجميع يتنافس لكسب اهتمام جوليانوس . . لم يكن هناك من شك أن جول هو نقطة اهتمام الجميع، ولم يخف أحدهم توقه لإرضاءه .

لم تكن ستيلا معها حين ظهرت السيدة هاڤري، وكانت على وشك أن تجلس قرب ميلاني، حين انجذبت إلى الحديث الجاري بين الضيوف، لكن ميلاني سمعتها فيما بعد تقول لابنها إن ستيلا تحس بالصداع، وإنها

ستبقى في غرفتها. . نظر شزراً إلى ميلاني، حاجباه الأسودان معقوفان. . وسألها:

- إنها في غرفتها، لا؟!

كررت السيدة هاثري بإصرار:

- أوه. . أجل. الطفلة المسكينة. . إنها شاحبة جداً.

- آه. . فهمت.

أصبح هذا التعبير مألوفا لميلاني، فهو يطلقه حين يرتاب بشيء، أو إذا سخر من شيء. . وكان في عينيه وميض كئيب. نظرت ميلاني إليه، فرفع كتفيه بقلق، لتحمل هذه الحركة الكثير من الكلام.

بعد قليل توجهوا إلى غرفة الطعام. . كانت الوجبة مطهوة ببراعة، والحديث يدور بكياسة حول الطاولة، يرافقه ضحكات مهذبة وتعليقات لم تجدها ميلاني جريئة، على غرار ما وجدها الجميع. . خاصة إذا صدر ذلك من جوليانوس. ذكرها هذا بشكل غريب بأيزاك، وبذكره العفوي للأسماء لمشاهير الناس ممن يعرفونهم أو يعرفهم الأصدقاء. . وقد كان نمط حياة ضيوف جول ليناسب إيزاك كثيراً. . فهذه أجواؤه المفضلة. . وابتسمت في نفسها.

نظرت إلى جوليانوس الذي أومأ إليها بحشرية سائلاً عن سبب ابتسامتها، وحاجباه مرتفعان. فأحست للحظات، بحميمية غريبة معه. . أحست أنها يمكن أن تشاركه ما تفكر به لو كانا معاً منفردين إذا ما تأكدت أنه سيرد عليها، بتفهم.

لكنها، أبعدت نظرها عنه، فتسللت قشعريرة خفيفة إلى جسمها. وقالت مفكرة في نفسها إن عالمها لا يمكن أن يتناسب مع عالم جوليانوس ولا بأي شكل أو حال. . ومن الخطر الشديد أن تترك نفسها تنجرف في أي نوع من العلاقات معه، مهما كانت مغرية.

لاحظت ميلاني إحدى النساء واضعة يدها على ذراع جول، ورأسها ينحني نحوه. لم تستطع سماع ما كانت تقول، فصوتها منخفض، لكن لا

شيء مكتوم في ابتسامتها، أو النظرة العاتبة في عينيها.

نظرت ميلاني إلى صحنها، وهي تحس بانزعاج، أنين ما يلح في داخلها. ورفضت الاستسلام لمشاعرها لأنها لا تريد أن تعرف سبب الألم الذي سرى في عروقها.

ماذا يهمها لو نظر جوليانوس بيلانوس إلى عيني امرأة أخرى، وابتسم لها بعينيه الساحرتين؟ لماذا تتساءل ماذا تهمس له المرأة؟ أو ما كان يقوله؟

كان لميلاني فكرة واضحة عن عالم جوليانوس. . فيما هي في مقعدها حول الطاولة المستديرة، تمكنت أن ترى أن جاذبيته تعمل، وترى أن النساء يتجاوبن معها. . زاد المنظر من صلابة المشاعر داخلها. . وأقسمت أن لا تترك نفسها تنزلق، بضعف إلى النظر إليه بالطريقة التي تنظر بها النساء إليه. .

أكدت لها السهرة كلها ما كان تفكيرها السليم قد قال لها، يجب أن لا تفقد القدرة على النظر إلى واقع أنها لا تنتمي إلى عالم جوليانوس. . وأن عليها أن تعود قريباً إلى عالم المستشفى المغلق، إلى أصدقائها، إلى طريقة حياتها المنظمة وقد بدا لها كل هذا بعيداً الآن، ووجدت صعوبة في تذكر ذلك العالم المختلف. . لكن، يجب عليها أن تجبر نفسها على التذكر، وتعرف أنها تنتمي إلى هناك، وليس إلى هنا.

كان الوقت يقارب منتصف الليل حين غادر الضيوف. اختفت السيدة هاثري بعد الحادية عشرة، متسللة دون كلمة خلال نقاش حاد حول الوضع السياسي في فرنسا. ظنت ميلاني أن خروج السيدة هاثري، قد يعطيها العذر لأن تلحق بها، لكن فيما هي تحاول النهوض من مقعدها التقت نظرة جوليانوس، وهز لها رأسه بحدة، يأمرها بصمت أن تبقى.

عادت ميلاني إلى الجلوس مقطبة. . لكنها لم تكن مستعدة لجذب اهتمام الضيوف بمحاولة عصيانه. . فهو لا يمانع أبداً ببدء جدال علني. . وهذا ما سيجعلها تشعر بحرج كبير.

انتهزت الفرصة حين بدأ الضيوف بالرحيل. وتسللت من دون أن يراها، بينما كان جوليانوس يودعهم.. وظلت تسمع صوته المنخفض يتحدث لعدة دقائق وهي تستعد للنوم. ثم أقفل الباب، وعرفت أن آخر الضيوف قد رحل.. وأصبحت الشقة هادئة تماماً.. تثاءبت ميلاني، فقد كانت أمسية كئيبة، مملة ما عدا ما حصلت عليه من مراقبة الناس من العالم الآخر.. وكأنها زيارة إلى حديقة الحيوان.. ومن المؤسف أن إيزاك ليس هنا.. لكان أحب السهرة.

استقرت في فراشها لتنام.. لكنها بقيت مستلقية في العتمة لوقت طويل، تريد أن تسترخي وتنام، إلا أنها بقيت مستيقظة متوترة.. إنه وضع كانت غريبة عنه حتى وقت قصير. كانت تنام بسهولة في الماضي.. ولم تستطع التفكير لماذا أصبحت تجد هذا صعباً مؤخراً.. أقنعت نفسها أن لا بد أن يكون بسبب أنها لم تعد تعمل بجهد كبير، وأنها ترتاح كثيراً خلال اليوم.

جلست في فراشها تتمتم نافذة الصبر، وأضاءت المصباح قرب السرير، لتفتش عن كتاب تقرأه.. لكنها لم تجده.. لا بد أنها تركته في مكان آخر.. أيمكن أن يكون في غرفة الجلوس؟ أجل.. لقد تذكرت، كانت تقرأه في وقت سابق اليوم.. وتساءلت إن كانت قد وضعته خلف المسند على الأريكة؟

تركت الفراش متنهدة، ودست نفسها في روبها ثم خرجت حافية القدمين لتسير في الشقة المعتمة. كانت غرفة الجلوس معتمة أيضاً، فأضاءت النور، وبدأت تقلب مساند الصوفا.

ـ أتبحثين عن شيء؟

جعلها الصوت الأجش العميق تقفز مجفلة، وتلتفت. كان جوليانوس يقف بالباب، جسده الرشيق ملتف بروب حمام أسود قصير.. وساقاه عاريتان مبللتان، وشعره الأسود مشعث، ويحمل منشفة في يده، من الواضح أنه كان يستحم.

تأوهت:

ـ أوه.. لقد أفزعتني!

تراقص الخبث في عينيه حين قال:

ـ آسف.. سمعت شخصاً يتسلل، وظننت أنها ستيلا تحاول الخروج.

ابتسمت ميلاني متوترة: آه! فهمت..

لكن، لماذا تحس بهذا الضعف في ركبتيها؟ سار نحوها، فأحست بصعوبة في بلع ريقها.

قالت وهي تبتعد نحو الباب بسرعة قدر ما تستطيع:

ـ حسناً.. أنا آسفة لإزعاجك.

كانت تتحرك دون أن يكون من الواضح أنها تهرب.. لكنه مد ذراعه بكسل ليمنعها.. وسألها بصوت ساخر أجش دافىء:

ـ إلى أين تذهبين؟ ليس بهذه السرعة!

* * *

www.liilas.com/vb3
Aml

٩ ـ أعطني سبباً للحب!

لف أصابعه حول معصمها بقوة بحيث لم تستطع الخلاص. فرفعت نظرها إليه، ثم تمنت لو أنها لم تفعل. فقد وجدت نظرة تثير الاضطراب في عينيه السوداء.

سألها:

ـ عمَ كنت تبحثين؟

ـ عن كتاب.

ـ ألم تستطيعي النوم؟

هزت رأسها نفياً. . فضحك بصوت منخفض:

ـ ظننتك مستغرقة في سبات عميق؟

ـ عادة أنام هكذا.

ـ لكن، ليس الليلة؟

أدارت وجهها عنه، ورموشها الطويلة تلامس خديها المحمرين، وعرفت أنه يراقبها عن كثب. . وهذا ما زاد من توترها. تمتم يسأل بنفس الصوت الدافىء:

ـ أتساءل لماذا؟

قالت تشد معصمها المأسور:

ـ ربما سأتمكن من النوم الآن. . أعذرني.

تحرك نحو الأريكة دون أن يرد، ووجدت نفسها أسيرة له، فقالت بصوت أجش منخفض:

ـ سيد بيلانوس. . أريد العودة إلى غرفتي.

جلس يشدها معه، إلى جانبه. . رفعت رأسها تنظر إليه بغضب، لتجد السخرية تتطاير من عينيه. وقال:

ـ لم أستطع النوم بدوري. . ربما لدينا نفس الأسباب لأرقنا.

سألته:

ـ وما هي أسبابك؟

عرفت فوراً أنها أخطأت. . ما كان يجب أن تسأله. كان يريدها أن تسأل، وهي تستجيب إليه دون وعي.

قال يترك معصمها ويستدير ليواجهها: كنت أفكر.

وجدت نفسها تنظر إلى روبه المفتوح، وترى لمعان بشرته السمراء، وخطوط عنقه القوية، لكانت هربت لو لم تكن واثقة أنه سيمنعها. . سألته تشيح بوجهها عنه:

ـ بماذا كنت تفكر؟

ردّ بصوت ناعم: بك.

بدأت دقات قلبها تتسارع، لكنها قاومت لترد بهدوء:

ـ حقاً؟

ـ لم ألتقِ بأحد مثلك من قبل. كلما تقربت منك أكثر، كلما سألت نفسي ما إذا كنت أنت الاستثناء الذي يثبت القاعدة. . المرأة الوحيدة التي يمكنني أن أثق بها.

نظرت إليه متأثرة، لكن لا زالت مضطربة، فابتسم لها:

ـ أعرف أنك تظنينني قاسياً مع ستيلا، لكن هناك أسباب لهذا. .

أتعرفين. .

ـ أعرف.

ـ ماذا تعرفين؟

ترددت مقطبة، فسألها:

ـ أقالت لك أمي؟ لا بد أنها أسمعتك وجهة نظرها. أتريدين سماع

وجهة نظري؟

ردت بلطف:

- إذا كنت ترغب في ذلك.

قال، وكأنه يتحدى نفسه:

- أظن أنه يترتب على الجميع تبرير نفسه.. كنت في الثامنة حين هربت أمي مع عشيقها، ولم أرها لسنوات. وكان عمي رجلاً قاسياً، ولم يسمح لي برؤيتها، عمل جاهداً على أن أكبر وأعرف ما فعلته بي وبأبي.

فتحت فمها لتقول شيئاً، لكنه أسكتها:

- دعيني أنهي كلامي.. مهما كانت قد جمّلت فعلتها حين روتها لك، فالواقع أنها تخلت عني حين هربت مع ذلك الرجل. وكانت تعي تماماً ماذا تفعل. لقد اختارت عشيقها وتركتني.. سمعت وجهة نظرها؛ لقد جعلت أبي يبدو وكأنه وحش.. حسناً.. لم يكن هكذا، كان رجلاً متحفظاً، عنيداً قليلاً، هذا صحيح، لكنه كان يحبها بعمق. وأعرف هذا. لقد حصلت على مذكراته.. أحبها من النظرة الأولى، وظل يحبها حتى ليلة هروبها. لقد حطمت قلبه، ومات بعد أسبوع من هروبها.

أجفلت ميلاني لتعابير وجهه، ونظرت إليه متوسلة:

- أفهم كيف بدا الأمر من وجهة نظرك.. لكن، ألا يمكن أن تحاول فهم وجهة نظرها؟.. إنها لم تحب والدك أبداً.

قاطعها بصوت خشن كوجهه:

- كان رجلاً رائعاً.

- لكن الحب ليس شيئاً تختار أن تمنحه.. ولا علاقة له بالمنطق.. مهما كان رائعاً، لم تستطع أمك أن تجبر نفسها على حبه. كانت تخافه.

نظر إليها بقلق، وفمه مشدوه، وأكملت:

- خالت أنه كان رجلاً مخيفاً.

يمكن لميلاني أن تصدق هذا وهي تنظر إلى وجه ابنه القوي الغاضب.. وهو، في مزاج غاضب، مخيف تماماً مثله.

تمتم على مضض، مشيحاً بوجهه عنها، يلوي فمه:

- قد يكون متسلطاً.. أذكر أنه كان يوقفني فوق كرسي كي أصبح على مستوى نظره، ثم يقول لي أن لا أنسى أن الحياة هي للعمل.. ولا يوجد أي شيء مهم سواه.

ارتفع حاجباها:

- إنها فكرة قاسية عن الحياة.. أليس كذلك؟

- هكذا كان. لم يكن رجلاً يمكن أن ترتاحي في رفقته. كان يدير الشركة بدقة الساعة، ويدير حياته بنفس الطريقة.

قالت بنعومة:

- إذن.. كان لأمك مبرراتها.. فأنت تعترف أنه من الصعب أن تحبه.

- لكنه كان زوجها، وأنا ابنها، وهربت لتتركنا وحدنا.

- وهذا ما كرهته كثيراً؟

التقى حاجباه فوق أنفه المتغطرس: ماذا؟

- كنت أسألك فقط.

- آنسة فرايزر.. لقد اكتشفت عنك أمراً مؤكداً.. أنت تفعلين كل شيء عن معرفة.. حتى طريقة تحركك متوازنة بشكل جميل. حين تختارين كتاباً، أو حتى شراباً، تفعلين هذا بنوع من التركيز والكياسة، وهذا لا يمكن أن أنساه.

كانت مترددة مجفلة أكثر من أن تستطيع الكلام، عيناها الزرقاوان متسعتان بارتباك ودهشة، واسترخى وجهه قليلاً لتعابير وجهها، وكاد يبتسم:

- لعل هذا عائد إلى نوع عملك..

فكرت ميلاني بكلامه باهتمام، قالت:

- لقد تدربنا على أن نكون رشيقات، خاصة في غرفة الجراحة.

نظر إليها باستغراب:

- وهل عملت في غرفة الجراحة؟

- نحن نتدرب في كل الأقسام، قبل أن يُسمح لنا بالتخصص. . هكذا نجد ما نحب أن نفعله، وتجد المستشفى ما نحن بارعات به، وأين نكون مناسبات أكثر.

سأل:

- أليس نفس الشيء؟

ضحكت:

- أتمنى هذا. . فأنا أحب العمل في قسم العمليات مثلاً، وأنا بارعة فيه، لكنه، على ما يبدو يؤثر عليّ بطريقة سيئة فأنا أشعر بالغثيان خلال العمليات الدقيقة.

- لا يدهشني هذا، فأنا أشعر بهذا.

- لذلك لم أستطع التخصص في هذا العمل.

- وبماذا كان اختصاصك؟

ابتسمت:

- في قسم العناية الفائقة للحوادث الطارئة.

نظر إليها مفكراً:

- لا بد أن هذا يتطلب منك الكثير.

- لكنه يستأهل.

علق بهدوء:

- خاصة مع خلفيتك الشخصية.

هزت رأسها موافقة. . كانت قد نسيت أنها أخبرته عن الحادثة التي تعرضت لها عائلتها، وأسبابها الخاصة لاختيار مهنة التمريض. فأكمل بإعجاب:

- أنت ممرضة مخلصة؟

هزت رأسها مجدداً.

- أحب عملي.

- وبارعة فيه؟

- إنه مثير للحماس على أي حال.

- كيف لفتاة مثلك أن تمرض بذات الرئة.

- من حقك أن تسأل. . فكبير الجراحين كان غاضباً مني لعدم اهتمامي بنفسي. . لكنني لم أفكر أنني مصابة بأكثر من رشح عادي. . لكن حين انهرت وكدت أختنق استدعت رفيقة سكني سيارة إسعاف، وانتهى بي الأمر أن أكون مريضة في المستشفى الذي أعمل فيه. على الأقل لم أكن في قسمي. . لكان هذا إحراجاً لي. . وما كانوا تركوني أنسى.

سألها: إلى أي حد كنت مريضة؟

ترددت قليلاً، ثم قالت بخفة:

- لقد نجوت على أي حال.

قال بصوت أجش:

- يا إلهي، هذا يعني أنك كنت مريضة جداً، كما أظن؟

ابتسمت:

- أجل، جداً. . كما يقول طبيبي.

قال بخشونة:

- وأصبحت كريشة في مهب الريح.

- لا تدع مظهري يخدعك سيد بيلانوس، أنا أقوى مما أبدو

تحرك قلقاً وسألها:

- كيف يمكن أن تتركي نفسك تصلين إلى هذا الحد من المرض؟ كيف يمكن أن تكوني بهذا الغباء؟

ردت بنعومة:

- كلنا يمكن أن نكون أغبياء في وقت من الأوقات. . أليس كذلك؟

التوى فمه، ولمع المرح في عينيه:

- أتقصدين أنني كذلك؟

- ألا تظن الوقت قد حان لتتوقف عن لوم أمك لما حدث منذ ثلاثين سنة؟ ألا تعلم أن كل سبع سنين، تتغير كل خلية من خلايا جسمك؟ إنها

عملية تدريجية، لكنها تعني أنك أصبحت جسدياً شخصاً مختلفاً، مقارنة بما كنت منذ سبع سنوات.. ونفس الشيء ينطبق على أمك.. لم تعد تلك المرأة التي هربت وتركت أباك وتركتك منذ تلك السنوات البعيدة.. لقد حدث الكثير لكل منكما منذ ذلك الوقت.. وأنت الآن رجل ناضج.. ألا يمكن أن تتوقف عن معاقبتها؟

عبس:

ـ لا تكوني سخيفة.. أخبريني آنسة فرايزر.. لماذا كلما أحاول أن أتقدم معك بموضوع، أجد نفسي وقد انحرفت إلى آخر.

ـ صحيح؟

كانت عيناها مراوغتان، فنظر إليها طويلاً، ورمى بنفسه إلى الوراء، وذراعاه فوق رأسه، وجسده ممدود بعفوية.

ـ تعرفين هذا جيداً.. وأنت بارعة في فعل هذا، أؤكد لك، بالكاد أعرف ما يحدث. بطريقة ما، تتغير معالم الطريق، وأتحول إلى طريق جانبي.. في دقيقة أكون متجهاً بقوة إلى الأمام وفي رأسي فكرة واضحة إلى أين أتجه.. وفي الدقيقة التالية أجد نفسي في اتجاه آخر.

ـ وما دخل هذا بأمك؟

هز لها رأسه محذراً:

ـ آه.. لا لن تحوليني إلى حديث جانبي مرة أخرى، ذلك المحامي الذي قدمك لأمي..

ابتسمت:

ـ إيزاك؟

ـ أهذا هو اسمه؟ لماذا تبتسمين هكذا؟ أهو صديق.. أم أكثر من ذلك؟

ـ صديق.

ـ همم..

ابتسمت ثانية، فسأل:

ـ حسناً.. ما هو المضحك الآن؟

ـ لا شيء.

ـ لماذا تبتسمين إذن؟

نظرت إليه ببلاهة:

ـ أكنت أبتسم؟ هل عليّ أن أعتذر لهذا؟

فضحك وقال هامساً:

ـ هناك شيء فيك، لا يمكن أن ينسى.

ـ ما هو؟

تفرس بها عن كثب:

ـ لديك روح مرحة.. وطريقة تحركك تجعلك غير عادية.. لكن نظرتك المباشرة الواضحة، من هاتين العينين الزرقاوين هي التي تجعلك فريدة من نوعك.

احمرّ وجهها:

ـ شكراً لك.. سأعزو هذا إلى شاعرية الساعة المتأخرة.. في الصباح ستندم على هذه المغازلات، في حال أخذتها بجدية.

تحرك بأسرع من أن تدرك ما يحصل، لتصبح عيناه فجأة على بعد إنشات، أصابعه تتلمس طريقها على خدها المحمّر.. وسأل:

ـ ولماذا؟

قطبت مرتبكة:

ـ لماذا لا.. ماذا؟

ـ لماذا لا تفكرين بي جدياً؟

بدأت أجراس الإنذار ترن محذرة في رأسها، فقالت بسرعة:

ـ لا.. ليس أنا سيد بيلانوس.. أنا لست مجنونة.

كان يمكن أن تهرب لو استطاعت، لكنه كان يحشرها في زاوية الأريكة، وذراعه تمنعها من الحركة.

تقطيبة شديدة جمعت حاجبيه:

ـ ماذا تعنين . . بأنك لست مجنونة؟

ردت تتحداه بشجاعة:

ـ سأكون مجنونة لو بدأت شيئاً معك.

واضطرت أن تشيح وجهها مسرعة، وعيناها تحدقان ببشرته السمراء حين انحنى نحوها . . قالت ورأسها مبتعد:

ـ أرجوك . . دعني أذهب.

أدار ذقنها نحوه، ونظر إلى عينيها المضطربة:

ـ لكنك ترغبين في هذا ميلاني . . أليس كذلك؟

ابتلعت ريقها بصعوبة: لا.

ـ أنت كاذبة!

ـ لست هكذا.

تمنت أن يبدو صوتها هادئاً واثقاً، لكنها تدرك أن صوتها لم يكن كذلك. فمن الصعب جداً أن تبقى هادئة وهو قريب منها، وهاتين العينين السوداوين الخطيرتين تحدقان بعينيها.

تمتم جوليانوس بصوت أجش، وأصبعه يمر على فمها:

ـ لدي إحساس أنك ستودين بي إلى الجنون إن تركتك، كنت محقاً بشأنك . . أليس كذلك؟ لم تكن لك علاقة مع رجل من قبل في حياتك.

ردت بهدوء:

ـ وبكل تأكيد، لن يكون لي علاقة معك . . اقتراحك يرضي غروري، لكن لا . . شكراً لك . . سيد بيلانوس.

دفع خصلة شعرها الأشقر إلى الوراء:

ـ لم أقترح شيئاً بعد . .

ـ إذن لا تزعج نفسك. فالرد سيكون لا.

انحنى نحوها أكثر ووضع خده على خدها:

ـ صحيح؟

توقفت أنفاسها للحظات، وصاحت:

ـ لاتفعل . . لا يروق لي هذا.

سمعت ضحكته المكتومة وهو يدفع شعرها الحريري ليكشف مؤخرة عنقها، ثم مرر خده على خدها، لكن ميلاني لم ترغب في الاستسلام، أرادت أن تدفعه عنها، رافضة الإغواء الناعم قبل أن يصبح خطيراً . . وكانت مشغولة جداً بالصراع الداخلي بين عقلها السليم وبين مشاعرها حين أسرها جوليانوس بين ذراعيه قبل أن تعي إلى أي حد قد وصل.

أدهشها تلاصق جسديهما، فارتجفت مستجيبة . . وارتفعت يداها المرتجفتان لتمسكا برأسه الأسود . . وتتسلل أصابعها إلى شعره الناعم الكثيف.

رفع جوليانوس رأسه، ونظر إليها بشغف:

ـ ألا زال الرد «لا» ميلاني؟

تخلت عن كل شيء . . فلتدع الغد يهتم بنفسه . .

وتأوهت مغمضة العينين: أجل.

رد بصوت أجش:

ـ أظنني وقعت في حبك.

فتحت عينيها ببطء شديد، ولم تصدق ما سمعته:

ـ ماذا؟

كان محمراً وفمه مفتوح، قال بقلق:

ـ لم أحس بالحب منذ كنت صغيراً جداً . . كنا أنا وزوجتي نحب بعضنا، لكن، بطريقة ما، سار كل شيء في طريق خاطىء . . واستيقظت يوماً، لأدرك مصدوماً، أنني لم أكن أحبها أبداً . . بل كنت أحب الحب نفسه وأنني لم أعرف زوجتي مطلقاً، فقيكي لم تكن المرأة التي ظننت أنها هي . . وهذا كل شيء . . وتلاشى السحر. وأدركت هذا بالطبع . . وكيف يمكن أن لاتعرف؟

تنهد بمرارة:

ـ لهذا بدأت تعبث مع شخص آخر. ظنت أنها بإثارة غيرتي سأعود

إلى حبها مجدداً . . لكنها لم تنجح .

المرأة المسكينة . . يا لها من ورطة مؤلمة أوقعت نفسها فيها . . وتنهد جوليانوس مرة أخرى :

ـ كانت غلطتي . . لكنني لم أكن أملك الجرأة لأعترف لها بهذا . كنت غاضباً، وأحسست أنها أذلتني علناً بتورطها في علاقة مع رجل آخر . . وكم كنت أنانياً قذراً .

ردت بلطف :

ـ لن أجادلك . .

ضحك :

ـ لا . . فبإمكاني أن أقرأ ما تظنينه في عينيك . عيناك تظهران كل شيء، تعلمين هذا؟

ـ لا يعجبني ما تقول .

ابتسم :

ـ لكنه يعجبني، وهذا أحد الأسباب لوقوعي في حبك . . هاتين العينين الكبيرتين . . لم أكن لأظن أنني سأحب مجدداً . بعد تحطم زواجي أقنعت نفسي أن الحب كله وهم . . تمثيل . . لعبة ثقة بالنفس . . لا وجود لشيء اسمه الحب، بل مجرد جاذبية كيمائية . . الحاجة للاكتفاء، وليس هناك امرأة أكثر أهمية من الأخرى . إذن لماذا أزعج نفسي بالزواج مرة أخرى؟

ـ هذا معقول، بطريقة ما، كما أعتقد .

تمتم مبتسماً :

ـ ثم التقيتك، بدوت لي رقيقة وأنثوية جداً . لك أجمل عينين رأيتهما، ابتسامتك تصيب بالدوار . . لكنني لم أعرفك لأكثر من دقيقتين حتى بدأت أظنك أكثر امرأة عنيدة التقيتها، وغضبت منك جداً . لكنني ظللت أتذكر الطريقة التي ابتسمت فيها عيناك مرة أو مرتين، ويجب أن أعترف أن هذا سبب مجيئي إلى باريس .

نظرت إليه مفكرة :

ـ جئت إلى باريس باختيارك؟

قال دون خجل :

ـ اختلقت عذراً . . لم يكن من الضروري حضوري لهذه المفاوضات . . كان يمكن أن يقوم بها أي مدير تنفيذي . . لكنني قررت أنه سيكون من المثير للاهتمام أن ألقي نظرة أخرى عليك .

ـ جئت إلي هنا وفي نيتك أن تغويني!

رد مبتسماً :

ـ اعترف بذنبي .

ـ يا إلهي! كم أنت مغرور!

سرّه هذا، فقال : آسف .

تمتمت، وحاجباها مقطبان :

ـ ولم أتمكن من كشف ذلك!

ـ أنا أكثر براعة من أن أجعل الأمر يبدو واضحاً .

ـ أنت بكل تأكيد لا تؤمن بإضاعة الوقت . . أليس كذلك؟ ليلة وصلت . .

ـ أجل . . غرّني وجودك هنا لوحدك . . وبدوت لي مثيرة جداً في الروب الأسود .

ـ شكراً لك .

ضحك :

ـ لا تنظري إليّ هكذا .

ـ لدي سبب وجيه لأضربك بشيء! لو كنت أعرف!

قال ساخراً :

ـ لكنت أصعب مراساً .

نظرت إليه عبر رموش نصف منخفضة :

ـ لكنك لم تحصل علي بعد . .

ـ أوه.. بلى.. أنت عالقة حقاً آنسة فرايزر.

شعرت برعشة خفيفة تتسلل إلى داخلها، ثم قطبت:

ـ لست أدري إذا كانت هذه الخطة المتتابعة بحذر تعجبني.

ـ طارت الخطة من النافذة على الفور، حين كلمتني تلك الليلة عن عائلتك، وأسباب عملك في التمريض.. بينما كنت أصغي إليك، كنت أراقبك، ومع أنني كنت لا أزال أرى أنك مغرية جداً، مثيرة جداً، إلا أنني بدأت أراك بشكل مختلف تماماً، وكلما زادت معرفتي بك، كلما ازداد إعجابي.. التخطيط لإغواء فتاة جميلة لم ألتق بها سوى مرة شيء مختلف تماماً. معظم الفتيات يرضي غرورهن تقرب كهذا.. على أي حال.. فقد تكبدت مشقة اللحاق بك إلى باريس، ألا يرضي هذا غرورك الأنثوي؟

ردت بجفاء:

ـ ليس كثيراً، لأنني أستطيع القول إن هذا يأتي في تصنيف الهوايات المكلفة..

ضحك:

ـ يا للسانك الصغير اللاذع! على أي حال، أنا لم أتابع خطتي.

قالت بنبرة فيها الكثير من الشك:

ـ لم تتابعها؟

هز رأسه.

ـ قد أكون ما تسمينه شيطان خبيث، لكنني لم أستطع المضي قدماً في خطة باردة الدم لإغواء فتاة بدأت تعجبني كثيراً.

نظرت إليه بقلق:

ـ وما الذي كان يجري الآن لتوه..؟ أذكر أن هناك اقتراح تقدمت به!

سخر منها، وعيناه تبرقان بخبث:

ـ قبلت الاقتراح.

احمرّ وجهها، واعترفت:

ـ حسن جداً.. قبلت.

ـ لكنني لم أكن أقترح فقط.. بل كان طريقة لسؤالك إن كنت تقبلين الزواج بي.

انقلب قلبها رأساً على عقب داخل صدرها، وسألت مرتجفة:

طريقة؟

هز كتفيه، واحمرّ وجهه:

ـ لم أستطع اختيار الكلمات الصحيحة.. أحسست بالغباء، فكرت أن أوصل لك وجهة نظري بطريقة ملتوية، تقود تدريجياً إلى الحقيقة.. أتبادلينني ما أشعر به؟

التوى فمه، فوضعت يدها على خده، وأدارت رأسه نحوها بلطف، تنظر إلى عينيه وتقول: أجل.

غمر الابتسام وجهه، وقال بعمق: ميلاني..

ردت.

ـ أحبك، وعرفت أن الأمر حقيقي ساعة نظرت إليّ وقت العشاء.

ـ حين كنت تبتسمين لنفسك؟ لماذا ابتسمت؟

ـ كنت أفكر بإيزاك.

عبس:

ـ إيزاك يجعلك تبتسمين؟

لم يعجبه هذا، أدركت هي هذا، فقالت مرحة:

ـ لو أنك تعرفه لجعلتك معرفته تبتسم.

لامست أصابعه الدافئة وأكملت:

ـ أردت أن أشاركك الفكاهة.. أدركت ساعتها فقط ما أحس به.. فالرغبة في المشاركة بفكاهة هو جزء من الحب.

ـ الحب إذن ليس ما كنت أعتقده.

ـ ليس هكذا أبداً.. وهذا هو سرّ الحب. لا تعرف أبداً ما تتوقع منه.

تمتم مبتسماً لنفسه:

ـ الحب كالعيد، مليء بالمفاجآت، ولا أستطيع الانتظار لأكشف

الغطاء عن هديتي.

تصاعد الاحمرار إلى وجهها لهذه السخرية، ووبخته، تتظاهر بصدمة عميقة:

- جوليانوس وأنا من ظننت أنك أحببتني لرجاحة عقلي فقط..

- ولهذا أيضاً.. لكن لحسن الحظ، عقلك جاءني في أجمل هدية.

انحنى رأسه الأسود الشعر نحوها، فمررت كلتا يديها حول عنقه، ورفعت رأسها إليه وكلها شوق!

* * *

www.liilas.com/vb3
Aml